

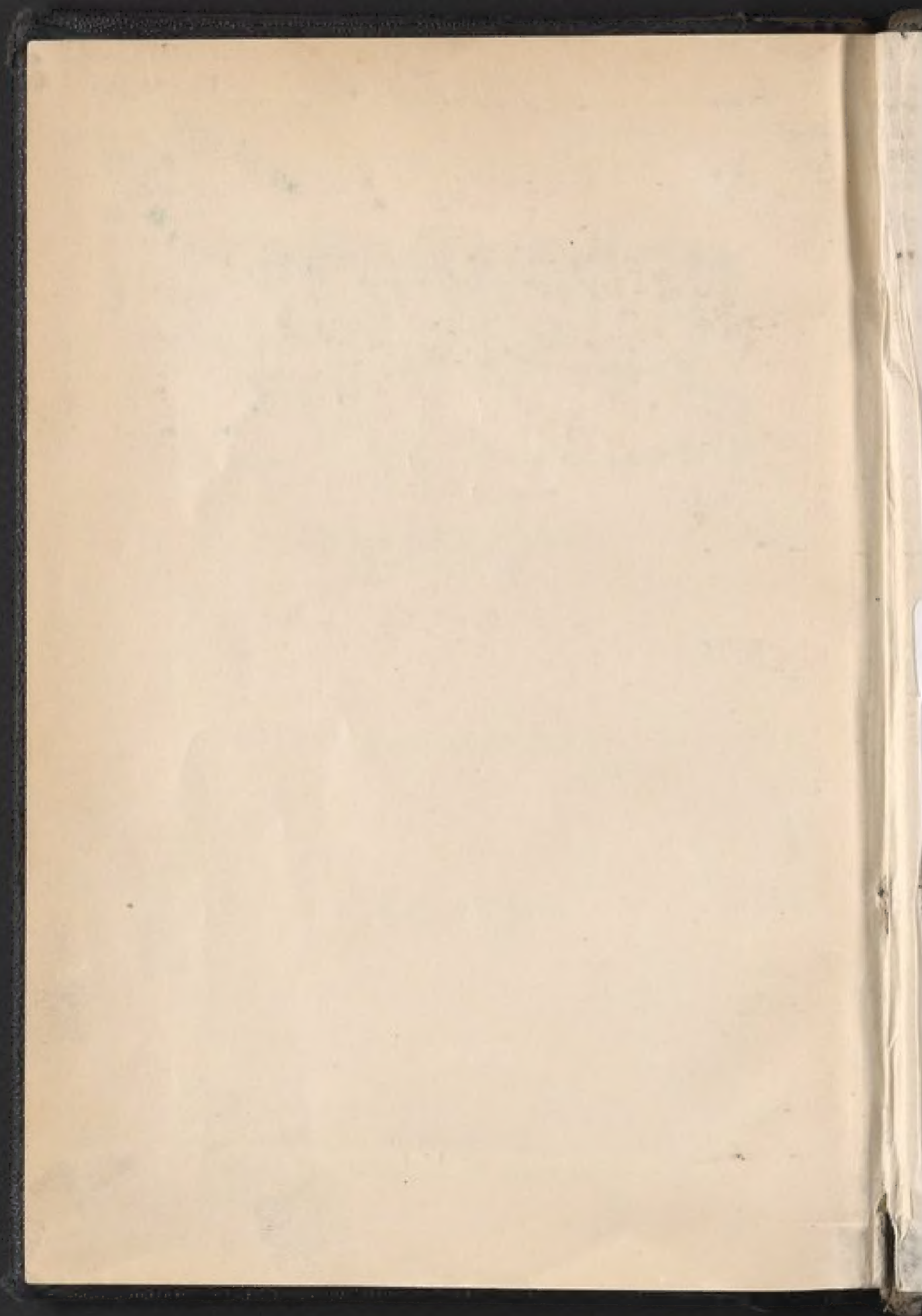
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01048 4925

B
75
G3
1
19



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



03-697 put

B Qurrah, Mahmud 'Ali
753 al-Thaqāfeh al-rūhiyah
G33
I35x
1947

سلسلة الروح الجامعية :

التفاهير السرخسية
في كتاب احياء علوم الدين للغزالي
بقلم محمد علي فرائة

(الطبعة الثانية منقحة ومكبرة)

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

طبع بدار الكتاب العربي بمصر

شارع قاروق - تلفون : ٥٠٩٣٨

189
ق.م.س

36482

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه تقي . . . والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى
آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الاهراء

الى روح أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرزاق

الذي أحببنا قلبه وزوجه وقربت روحنا من روحه أستاذاً عزيزاً
نبيلاً ، والذي دعتنا صوفيتنا إلى أن ننأى عنه وزيراً وشيخاً للجامع الأزهر ،
فكان إذا ما قابلناه طابقتنا نظراته وجاد بفيض عطفه وحبه ما كان يحجلنا
في تقصيرنا ، فلما فقدناه وشيعناه أحس قلبنا وروحنا بتحية روحه التحية
التي تذكرنا كلما ذكرناها بقلبه الكبير وبما كان له من نبل في الأخلاق
ورقة في الشعور وعذوبة فيض في الروحانية . . . تحية روح لروح ! . . .

محمود علي قراعة

منشئة البكري في { ٢٠ رجب سنة ١٣٦٦ هـ
٩ يونية سنة ١٩٤٧ م

صفوة

الحياة الغزالي

يجب على أن أذكر أني أردت بمديث الغزالي الروحي إعطاء القارىء فكرة كاملة مختصرة للثقافة الروحية في كتاب « إحياء علوم الدين » ، لأوفق بين دفع القصور والتقصير في إهمال قراءته على كبر قيمته وبين توفير الوقت على الراغبين فيه لولا كبر حجمه ، وصعوبته ، وعنيت كل العناية بالمحافظة على معانيه حتى حافظت في كثير من الأحيان على نفس لفظه ولم أخرج عن هذا إلا فيما كان جريا على نهج البحث أو سبيل الاستنتاج ، واجتهدت - لكيلا أخرج عن الغرض الذي أردته - في أن أجرد الحديث عن آرائى الشخصية فوفقت لهذا إلى حد كبير ، حتى أنى جذبت عنان يراعى وفكرى فلم يخط في هذا الكتاب إلا بضع خطى قليلة ظاهرة أردت بها إيضاح فكرة غامضة أو التحدث عن وجهة نظرى في موضوع من الموضوعات التى رأيت وجوب عرضها لتكون مكملة أو موضحة للحاجات الروحية والاجتماعية في هذا العصر مع تمثيلها مع روح الإسلام ومع المبادئ الروحية للغزالي نفسه !

واللذة الروحية التى أردنا أن يشعر كل إنسان بها هى المعرفة ، والغزالي قد أنار لنا الطريق بما حدثنا ، ونستطيع أن نوجز الحديث عن هذه اللذة بأن نذكر أنها لذة واحدة متشعبة إلى عدة فروع ، وهى لذة معرفة الله ، فمن حديثه عرفنا معرفة صادقة ما يجب أن نعرفه عن الله ، وعرفنا معنى

توحيده والفناء في هذا التوحيد في التوكل عليه وحده هذا التوكل الذي أراد الله لعباده، وعرفنا حب العبد لله ومعنى حب الله للعبد ومظاهر هذا الحب^(١)، وعرفنا الأنواع المختلفة التي تعبنا الله بها وما يريد سبحانه من تقوية قلوبنا وتصفيتها وتغذية أرواحنا وتنميتها بالإيمان، وعرفنا كيف نخلص لله ونراقبه ونخافه ونرجوه، وإذا أذنبنا ما سبيل التوبة للرجوع إليه، وفي حياتنا كيف تفكر في خلقه، وعند موتنا ماذا يجب أن نستحضره من الإيمان به وحبه. فإذا ما شعرنا بهذه اللذة شعرنا بلذة قوة الإيمان ولذة العمل على نجاة نفوسنا وتطهيرها بحب الجلال والخير والجمال، وتغذية أرواحنا في الصلات المختلفة بين الناس وما يجب علينا أن لا نبخسهم أشياءهم والا نتعرض لإيذائهم بسوء ظن أو حقد أو حسد أو فعل شر لهم، فذاشع بلذة حب الناس ولذة العطف عليهم ولذة الاتصال القلبي بمشاركتهم في الفرح بسرانهم والألم لضرانهم، فإذا وصلنا إلى هذه الدرجة فنحن لا بد واصلون إلى اللذة الروحية بفهم معنى الجمال ومداه وأنواعه، وبالصلة الروحية بين صديق أو أخيه أو زوجة ترتبط برباط شرعي بها، أو قريب ترتبط بيننا وبينه لحة النسب، أو وطني ترتبطنا به رابطة الدم، أو إنسان ترتبط بيننا وبينه رابطة الإنسانية وكونه عبد الله خلقه كما خلقنا وله قلب وروح وجسم كالنا، ويجب عليه أن يقوى روحه ويسخر بدنه وقلبه لخدمة هذه الروح والسمو بها كما يجب علينا. وإذا فهم الإنسان هذا واستفتى قلبه المؤمن وعمل بما يوحى إليه ضمير الإيمان وبصيرة العقيدة الخالصة القوية ولوامع الحق في القلوب، رغب في تقوية هذه اللذات فليجأ لفقه النفوس فراض نفسه على حب الخير وعمل على أن يخلص صلته بربه من الشوائب وصلته بالناس

(١) سنرى أن محبة الله العبد تقربيه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه، وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى ذلك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له، وعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره.

من الظلم وصلته بنفسه من إبدائها ، وبذا تلخص روحانية الغزالي في إيمان
الإنسان بكل شيء في الحياة ، بأن يكون قوياً في حبه لربه (لأنه أصل نعمة
الحياة) وللناس (لأنهم صنع الله) ولصاحبه (لأنهم قطعة من روحه) ،
ومظهر حبه لله الإيمان القوى والعبادة والتوكل والتوحيد ، والحب
والإخلاص والمراقبة والتوبة والرجاء والخوف ، ومظهر حبه للناس العطف
عليهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان لهم وعدم إبدائهم
وبذل الجهد ما أمكن لخيرهم في دينهم ودنياهم ، ومظهر حبه لإخوانه أن
يعاملهم كنفسه يحب لهم ما يحب لها ويكره لهم ما يكره لها ، وحسب
الإنسان كمالاً أن يزن الأمور بالقسطاس بأن يكون عادلاً في معاملاته
المادية ، رحماً في معاملاته اللعنوية ، مخلصاً في معاملاته الروحية ، وحسبنا
أن نصل بالقارئ إلى هذه الدرجة من الرقي الروحي ، والسلام .

محمود علي قراء

« غفر الله له ووفقه للخير »

منشأة البكري في ٦ مايو سنة ١٩٣٥

تمهيد البحث وتقسيمه

العلم غذاء القلب :

يرى الغزالي « أن غذا، القلب العلم والحكمة وبهما حياته . كما أن غذا، الجسد الطعام . ومن فقد العلم فقلبه مريض . وموته لازم وإن لم يشعر به إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعاً ، فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا . أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيماً بما لا ينفعه (لأن » الناس نيام إذا ماتوا انقبوا ») .

الشواهد العقلية لفضل العلم :

ويأتي للتدليل على فضل العلم بشواهد عقلية خلاصتها : أن العلم فدية في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ، فإنه وصف كمال الله سبحانه وتعالى ، وهو لذيق في نفسه لأنه ذريعة إلى معرفة الله وأصل السعادة في الدنيا والآخرة ، وأن تعلمه مطلب للأفضل وتعليمه إفادة للأفضل . وأن العلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم إذ يشتمل بتكاملها وتكملتها وتطهيرها وميافها إلى القرب من الله عز وجل .

علم المعاملة وعلم المكاشفة :

ويقسم العلم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة . ويقول إن المعاملة التي تكاف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : إعتقاد ، وفعل ، وترك : فأول واجب عليه تعلم كفاي الشهادة وفهم معناها وهو قول « لا إله إلا الله » محمد رسول الله » . ولا يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر

والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزءاً من غير
اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من
غير بحث ولا برهان . فمن صدق وأقر فقد أدى واجب الوقت .
أما الفعل فيتجدد وجوب الصلاة عليه إذا دخل عليه وقمها ، ووجوب
تعلم الصوم إذا دخل عليه رمضان ، فإن تجدد له مال عند بلوغه لزمه تعلم
ما يجب عليه من الزكاة ، فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى
علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور . ولكن
ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل
من ملك الزاد والراحلة ، فإذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج . وأما الترك
فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص
إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأصم تعلم
ما يحرم من النظر .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب ، فيجب علمها بحسب الخواطر فإن
خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كتابنا الشهادة ، فيجب عليه تعلم
ما يتوصل به إلى إزالة الشك ، وينبغي أن يبادر في أن يلقى إليه الإيمان
بالجنة والنار والحشر حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من شعبة كتابي الشهادة .

العلم شرعي أو غير شرعي :

ويرى الغزالي أن العلوم بالاضافة إلى الفرض الذي نحن بصدد تنقسم
إلى شرعية وغير شرعية . وأن الشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله
عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه ^(١) ولا التجربة ^(٢) ولا السماع ^(٣) .
وأن العلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو مذموم (كعلم السحر)
وإلى ما هو مباح (كالعلم بالأشعار التي لا صنف فيها وتواريخ الأخبار)

(١) مثل الفلاسفة .

(٢) مثل الحكماء .

(٣) مثل المشايخ .

وإلى ما هو محدود ترتبط به مصالح الدنيا وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية (وهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا ولو خلا البلد عن يقوم به خرج أهل البلد ، وإذا قام به واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . وذلك كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، والحساب فإنه ضروري في المعاملات ، وكذلك أصول الصناعات كالزراعة والحياكة والسياسة) . وإلى ما هو فضيلة (كالتمتع في دقائق الحساب وحقائق الطب) . أما العلوم الشرعية فهي محدودة كلياً : ^(١) وأصولها أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة رضي الله عنهم . وفروعها ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعاني تنبئت لها العقول فأتبع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ اللفوظ به غيره (كما فهم من قوله عليه السلام : « لا يقضى القاضي وهو غضبان » أنه لا يقضى إذا كان حائفاً أو جائعاً أو مثأماً بمرض) ، وهذا على ضربين أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ونحوه كتب الفقه والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه . ومقدمات الأصول : هي التي تجري منها مجرى الآلات كتعلم اللغة والنحو وكعلم كتابة الخط ، وأما مقدمات الأصول فذلك في علم القرآن وينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف ، وإلى ما يتعلق بالمعنى كال تفسير ، وإلى ما يتعلق بأحكامه كعرفة الناسخ والمنسوخ ، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً .

فالمعزى يعني بعلم طريق الآخرة « كيفية تصديق مرآة القلب عن الحقائق » وهو فحان : علم مكاشفة وعلم معاملة ، فعلم المكاشفة (علم الباطن) هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكياته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كأن يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني بجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية

(١) ولكن قد يظن أنها شرعية وتكون مضمومة .

بذات الله سبحانه وتعالى وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة .

أما علم التعامل فهو علم أحوال القلب ما يحمد منها وما يذم . وتقوية الأحوال الحمودة بمعرفة حقائقها وحدودها وأسبابها التي بها تسكن وتغتر بها وعلاقتها ومعالجة ما ضعف منها . وأما الفلسفة فليست علماً بذاتها (١) فلم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم . بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة .

ويأتي لذا الغزالي ببيان علة ذم العلم المذموم ويقول إن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد ولأحد أسباب ثلاثة :

(الأول) أن يكون مؤدياً إلى ضرر إما لصاحبه أو لغيره (٢) .
(الثاني) أن يكون مضرّاً لصاحبه في غالب الأمر (كعلم النجوم) إذ هو قسمان : قسم حساني نطق القرآن به إذ قال عز وجل « الشمس والقمر بحسبان » والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » . وقسم يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب . وهذا قد زجر عنه الشرع من ثلاثة أوجه :

(١) أنه مضر بآكثر الخلق إذ يبيق القلب ملتفتاً إلى السكواكب ويرى الخير والشر محذوراً أو مرجواً من جهتها ، ويغفل عن أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالى .

(٢) أن أحكام النجوم (أن بعض الآثار تحدث عقيب سيرها) تخمين محض . فالحكم به حكم بحيل لا بعلم .

(٣) أنه لا فائدة فيه .

(١) ويقول الغزالي : إنها أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والخطاب وعلم بيانها ، و (ثانياً) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وسرورته ووجه الحد وسرورته و (ثالثاً) الأقسام وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته و (رابعاً) الطبيعيات وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استوائها وتغيرها وبعضها بحث عن الشرع والدين الحق .
(٢) كما يذم علم السحر .

(الثالث) الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم . فهو مذموم في حقه (كتعلم دقيق العلوم قبل جليها وخفيها قبل جليها وكما لبحث عن الأسرار الإلهية) .

ويحدثنا عن بيان القدر المحمود من العلوم المحمود فيقول : إن المحمود إلى أقصى قايات الاستقصاء . هو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا . أما فروض الكفايات : فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل واقتصاداً وهو الوسط واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد . فيجب مراعاة التدرج فيها « فلا يستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء . فإن العلم كثير والعمر قصير . وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعبها بل لغرضها » .

واجبات المتعلم :

فالتزالي يرى أن تتعلم العلم وأن يأخذ كل منا منه بالقدر الذي ينفعه في دينه ودنياه وأن يعتمد عن العلوم التي لا خير فيها لأنها مضجرة للوقت أو لأنها مزرعة لليقين ثابتة بإيمان القلوب . وأن يقدر كل منا نفسه في العالم وحده مع الله وبين يديه الموت والعرض والحساب والجنة والنار . ويتأمل فيما يعنيه مما بين يديه ويترك ما سواه . وهو لهذا يرى العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى . ويقول « إن نور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصورة » فيجب على المتعلم تقديم طيارة النفس عن ردائل الأخلاق ومذموم الأوصاف لأن « الصور في هذا العالم غالبية على المعاني والمعاني باطنة فيها . وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني . فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية » . ولكي تكون هذه الصورة المعنوية بالغة مبلغها من الكمال يرى أن يعرف المتعلم السبب

الذي به يدرك أشرف العلوم ويعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع
القريب على البعيد والدم على غيره و « القلب تلك اللطيفة الربانية هي الساعية
إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فنه مصدرها وإليه مرجعها ، وأما
البدن فمطيتها التي تركبها وتسمى بواسطتها ، فيجب المحافظة على علم سلامة
البدن ومساعدة أسباب الصحة بالاجتماع والتظاهر والتعاون ليصل إلى
علم القلب براحة لطيفة ونهضة الأسباب لها » ، وأن يكون قصد التعلم
في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي الآل القرب من الله سبحانه
وتعالى والترقي إلى جوار اللا الأعلى واللائكة والقربين ، ولا يقصد به
الرياسة والمال والجساد وممارسة السفهاء ، وأن يقلل التعلم علائقه من
الاشتغال بالدنيا لأنه « مهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك
الحقائق » ، وأن لا يتكبر على العلم ولا يتأثر على العلم ، وأن يكون
ذا قلب حاضر بأن يقبل العلم قبلاً مصغياً فرحاً ، وأن يحترز في مبدأ الأمر
عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا
أو من علوم الآخرة « فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه
ويؤثره عن الإدراك والاطلاع » بل ينبغي أن يتقن أولاً مذهب
أستاذه ثم يصفى بعد ذلك للمذاهب والشبه ، ويجب أن لا يدع طالب
العلم فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من أنواعه إلا ونظر فيه نظراً يطلع به
على مقصده وغايته ، فإن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالآثم
منه واستوفاه ، ويجب أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ،
فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض .

واجبات المعلم :

ويرى الغزالي أن وظائف المرشد المعلم الشفقة على المتعلمين وأن يحرمهم
مجرى بنيه . ويقول « كما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا
على المقاصد كما ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد ، التحاب والتواجد »

ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة . ولا يكون إلا التنافر والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . فواجب العلم اعتبار المعلمين أبناءه وأخوته وأخوانه . واجبه أن يحبهم ويرشدهم وأن يفهم أن الصلة بينه وبينهم صلة روحية قبل أن تكون مادية ، وهو بهذا الحب الروحي يحب أن لا « يطلب على إفادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ، ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه . ولا يرى لنفسه منة عليهم — وإن كانت المنة لازمة عليهم — بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم » . وهذا الذي يراه الغزالي هو الأصل في الصلة بين المعلم والتعلم . ولكن لأن النفوس البشرية ضعيفة لا يجد أكثرها ما يعمل على خدمة العلم للعلم ، كان للمعلمين — لاسيما للعلوم الدنيوية — أجر . الأصل فيه أن يبقى بحاجاتهم وأن يظهروا به أمام الناس بالمظهر اللائق بهم وأن يستغنوا عن الناس من الوجبة المادية فيحفظوا بذلك كرامتهم وكرامة العلم . ولكن إذا نظرنا للصلة بين المعلم والتعلم في دور التعليم المصرية . لوجدناها صلة مادية تدعو للألم وتبعث على التخصر ، ففي ابتدائي وثانوي — سواء في المعاهد الدينية أو في مدارس وزارة المعارف — تجد غالب الصلة بين التلميذ وأستاذه صلة تنافر وتباغض ، التلميذ يخاف من أستاذه ويخشاه ولكنه لا يحبه ، والأستاذ لا يعطف على تلميذه وإن عطف عليه فلحاجة في نفس يعقوب^(١) . ومن دواعي الأسف أن تكون هذه المادية الحقة على عين الصلة بين الأستاذ وتلميذه في المدارس العليا — حتى في كليات الأزهر وكليات الجامعة المصرية — يحترم الطالب أستاذه لأنهما سيلتقيان في الإمتحان الشفهي فهو يتقرب إليه بما قد يصل إلى حد التزلف والتلقى المزرى لوهم أنه سينفقه بدرجة أو درجتين أو درجات أو على الأقل بتسهيل الأسئلة عليه ، وهو لهذا الوهم يشرب مرارة جيل أستاذه ولا يستطيع أن يناقشه خوف أن يحمل أستاذه

(١) أقربها إلى الأذهان أن يكون هذا ابن صديق أو قريب أو عظيم ، أو أنه مدرسه الشخصي في المنزل ينقضي منه أجرا زيادة عن أجره .

حب المناقشة رغبة في التعجيز . ولا يجرأ على أن يخطئه في نظرية علمية
أو أن ينقد أسلوب إلقاء أو يبدى جهلاً فاضحاً ظاهراً من أستاذه أو يتحدث
عن ضعف ظاهر بين منه . خوف يوم لقاء الامتحان الذي يتوعد به
الأساتذة الطلبة أو يتوهم الطلبة أنه يوم الوعيد . وكان الأحرى أن تكون
هناك صلة قلبية بين الأستاذ وتلميذه . صلة حب خالية من الأغراض .
يعلم الأستاذ أنه أمين فلا يدع كما يقول الغزالي من نصيح المتعلم شيئاً
« وذلك بأن ينعمه من التصدي رتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم
خفي قبل الفراغ من الجلي . ثم ينهي عن أن الغرض بطلب العلوم هو القرب
من الله تعالى » . وكل العلوم هذا هو غرضها سواء أكان مباشراً أم غير مباشر .
حتى العلوم الدنيوية التي يريد بها متعلماً كسب العيش هي علوم يراد بها
أن تربئه لعمل معين أو حرفة معينة أو وظيفة معينة يستغنى بها عن
سؤال الناس ويقيم بأجرها أو دونه ويصرفه على حاجياته المادية فيخلص تفكيره
من الأمور المادية وبذا يعني بالروحانية ، وكلما قويت عنايته بها قرب من
الله تعالى . يجب أن يعلم الأستاذ أنه أمين فيجب كما يقول الغزالي « أن يزجر
المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق
الرحمة لا بطريق التوبيخ . فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث
الجرأة على الهجوم ويهيج الحزم على الإصرار . ولأن التعريض أيضاً
يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه . فيفيد فرح
التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن قطبته » ومن
دواعي هذه الأمانة « أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يفتح في نفس
المتعلم العلوم التي وراءه . بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم
طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدرج في
ترقية التعلم من رتبة إلى رتبة » و « أن يقتصر التعلم على قدر فيه .
فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فيفسره . أو يخطئه عليه عقله » و « أن يلقى إلى
المتعلم القاصر ، الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً
وهو يدخره عنه » .

هذه هي أمانة الأستاذ العلمية ، أما أمانته الخلقية فهي حبه لتلميذه
الحب المجرد عن الغرض المادي ، المقصود به إفادته العلمية ، لأنه بهذا الحب
يحبّه . لأن بالعطف يعطف الإنسان أو يحمل على العطف ، ويكون سبب
الحب هنا هو تلك الصلة الروحية التي تربط بين اثنين يسعىان لغرض واحد
شريف هو الوصول إلى الحقيقة والبحث عنها أنى وجدت . ويرى الغزالي
فوق هذا الحب لفائدة العلم « أن لا يطلب العالم الدنيا بعلمه بل يطلب
الآخرة ويؤثرها . وأن يكون غير مائل إلى الترفه في الطعام والشراب والتنعم
في الملابس والتجمل في الأثاث والسكن بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك »
وأن يكون أكثر اهتمام بالتعلم بعلم الباطن . ومراقبة القلب ومعرفة طريق
الآخرة وسلوكه . وصدق الرجا في انكشاف ذلك من المجاهدة والرافقة
« فان المجاهدة تفضي إلى المشاهدة . ودقائق علوم القلوب تنفجر منها ينابيع
الحكمة من القلب . وأما الكتب والتعليم فلا تنى بذلك » و « أن
يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم المنة ما دام يجد إلى الفرار
عنهم سبيلا . بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه » و « أن
لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزا ما وجد إلى الخلاص
سبيلا . فان سئل عما يعلمه تحقيقاً (بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع
أو قياس جلي في العلوم الدينية) أفتى : وإن سئل عما يشك فيه قال
لا أدري ، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتحمين احتياط ودفع عن نفسه
وأحال على غيره إن كان في غيره غنية » .

مثال التعاون في المناظرة :

والغزالي كما رأينا يدعو تلامذة العلم الواحد إلى التحاب والتواد
والتعاون ، ويحدثنا كمال لما يراه في التعاون العلمي عن المناظرة ، فيقول :
إن الغرض من المناظرة . المباحثة عن الحق ليتضح « فان الحق مطلوب .
والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر . والتعاون

على طلب الحق من الدين « ويرى أن لا يشتغل بطلب الحق عن طريق
المنافرة من لم يتفرغ من فروض الأعيان ، وأن لا يرى فرض كفاية أهم
من المناظرة (فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره . عصى بفعله) وأن يكون
للمناظر مجتهداً يفتى برأيه ، وأن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة
الوقوع غالباً ، وأن تكون المناظرة في الخطوة أحب إليه وأهم من المخاض
« فإن الخطوة أجمع للقيم وأحرى بسقاء الذهن والفكر ودرك الحق .
وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل
واحد نفسه محققاً كان أو مبطلاً » . وأن يكون في طلب الحق كفاية
ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه . ويرى
رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه بالخطأ وأظهر له الحق . وأن لا يمنع
معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال .
ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل البتدعة فيما له وعليه كقوله هذا
لا يلزمي ذكره وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك (فإن الرجوع
إلى الحق منافي للباطل ويجب قبوله) .

تقوية اليقين :

ويرى الغزالي أنه يجب أن يكون تعلم شديد العناية بتقوية اليقين ويقول
إن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين : أما النظار والمتكلمون
فيعبرون به عن عدم الشك ، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشئ .
له أربع مقامات :

(١) الشك : وهو أن يعتدل التصديق والتكذيب .

(٢) الظن : وهو أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان
نقيضه ، ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول لتجويز اختلاف أمر مساو
لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه .

(٣) اعتقاد مقارب لليقين : وهو أن تميل النفس إلى التصديق بشئ حيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تاتي النفس عن قبوله ، ولكن ليس ذلك عن معرفة محقة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والاصفاء إلى التشكيك والتجوير . اتسعت نفسه للتجوير .

(٤) اليقين : وهو المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه ، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء ، سواء حصل بنظر أو بحس أو بفريضة العقل أو بتواتر أو بتجربة أو بدليل ، ويرى الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء أنه لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجوير والشك ، بل إلى استيلائه وغلبته على العقل ، فيما مالت النفس إلى التصديق بشئ ، ، وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو التحكم والمتصرف في النفس بالتجوير والنوع . سمي ذلك يقيناً .

فعلى اصطلاح المتكلمين لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك ، وكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عندهم ، وعلى اصطلاح الفقهاء والمتصوفة يوصف اليقين بالضعف والقوة ، ويرى الغزالي أن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعاً ، وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب التحكم عليها المتصرف فيها . ويقول : إن درجات اليقين في القوة والضعف لا تتناهى ، وتفاوت الخلق والاستعداد للموت تفاوت اليقين بهذه المعاني ، أما التفاوت بالخفاء والجلالة فلا ينكر أيضاً ، وكذا فيما يتطرق إليه التجوير وفيما اتنى الشك عنه ، فإنك تدرك التفرقة بين تصديقك بوجود أمرين لا تشك فيهما إذ مستندهما جميعاً التواتر ، ولكن ترى الأول أحلى وأوضح في قلبك من الثاني ، لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين مثلاً . وكذلك ليس وضوح ما لاح بدليل كوضوح ما لاح بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين كما يقال فلان أكثر علماً من فلان أي معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين في

جميع ما ورد الشرح به ، وقد يكون قوى اليقين في بعضه .
ويرى الغزالي أن العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه . وقد سماه الله
تورا في قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » مثل نوره كشكاة «
وسمى العلم الاستفادة منه روحاً وروحاً ووحياً وحياة فقال تعالى « وكذلك أوحينا
إليك روحاً من أمرنا » وقال سبحانه « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له
نوراً يمشي به في الناس » . وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل
كقوله « يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

والعقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان :

(١) الغريزة التي يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وتدبير الصناعة
الفكرية^(١) .

(٢) العلوم الضرورية التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجوار
الجائزات واستحالة المستحيلات^(٢) .

(٣) العلوم التي تستفاد من التجارب بتجاري الأحوال^(٣) .

(٤) أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقسم
الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقصرها . فإذا حصلت هذه القوة سمى
صاحبها طافلاً من حيث أن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في
المواقف لا بحكم الشهوة العاجلة .

ويقول الغزالي إن الغريزة والعلوم الضرورية بالطبع ، والتجارب
ومخرتها الأخيرة وظايفها القصوى في معرفة عواقب الأمور بالاكتساب ،
وإن الناس يختلفون في تفاوت العقل ، والتفاوت يتطرق إلى الأقسام
الأربعة سوى القسم الثاني وهو العلم الضروري^(٤) وأما الأقسام الثلاثة

(١) وهذا هو الأس والتابع . (٢) وهو أقرب إلى التابع .

(٣) وهذا هو الأول والثاني له قوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد بالتجارب .

(٤) قال من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد ، عرف أيضاً استحالة كون الجسم
في مكانين وكون الشيء الواحد ههنا وهاهنا ، وكل ذلك يتركب مطلقاً من غير شك .

فالتفاوت يتطرق إليها ، أما القسم الرابع فلا يخفى تفاوت الناس فيه ، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة (إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض) ولما كان غير مقصور عليه (فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا ، وإذا كبر وتم عقله قدر عليه ، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا) ، وقد تكون نسبة التفاوت في العلم للمعرف لغائلة تلك الشهوة (ولهذا يقدر الطبيب على الاحتواء عن بعض الأطعمة الضرة ، وإذا كان علمه أنهم كان خوفه أشد) ، فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل ^(١) ، وإن كان من جهة العلم فهو عقل لأنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه ، وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل (فانها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد) . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب ، فتفاوت الناس فيها لا ينكر ، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ، ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة وإما تفاوتاً في الممارسة « فالتفاوت في الغريزة لا سبيل إلى جعده ، فإنه مثل نور يشرق على النفس ومبادئ ، اشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً خفي التدرج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة . وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر » .

ويرى الغزالي أن ما اتصل بالعقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبر في أول نشوئه ليحفظه حفظاً ، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ، فابتدأه الحفظ ثم القيم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق ، وذلك ما يحصل في الصبر بغير برهان ، وجميع عقائد العوام مبانيها التلقين المجرد والتقليد

(١) ويقول الغزالي عند شرحه صفات القلب إلى العقل مشترك بين ثقافة ، والتلقين غرضاً من سبلها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به الإدراك للعلوم فكأن هو القلب والعقل قد يطلق ويراد به صفة العلم وقد يراد به عمل الإدراك أي الإدراك .

المحض ، وهو غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه .

أى أن الغزالي يرى وجوب تلقين الصغير والعامى العقيدة الصحيحة وتقويتها بالتقليد وتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه والاشتغال بوظائف العبادات . ولذا يرى أن علم الكلام حرام بالنسبة لهؤلاء ، لأنه مشير للشبهات محرك للعقائد مزيل لها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل في الابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد الحق . وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيتته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشدد حرصهم على الإصرار عليه ، وهذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . ولكن الغزالي مع ذلك يرى أن لعلم الكلام منفعة واحدة وهي حراسة العقيدة على العوام وحفظها عن تشويشات البدعة بأنواع الجدل « فإن العامى ضعيف يستغزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه » ، ويرى أنه إذا وقعت الإحاطة بضرر هذا العلم ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا في موضعه في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة . فيقول إن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها ، بما تلقنوا الاعتقاد الذي ذكرناه « فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يثير لهم شكاً ويزلزل عليهم الاعتقاد ، ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح » ، وأما العامى المعتقد للبدعة فينبغي أن يدعى إلى الحق « بالتلطف لا بالتعصب » ، وبالكلام اللطيف المقتنع للنفس المؤثر في القلب ، القريب من سياق أدلة القرآن والحديث ، المزوج بفن من الوعظ والتحذير . فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين .

ويرى أن استقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد ، وهو أن يفرض عامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه ، فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى

اعتقاد الحق « وذلك فيمن ظهروا الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواظع
والتحذيرات العامة : فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل
فجاز أن يلحق إليه » . وفي البلاد التي تقل فيها البدعة ولا تختلف المذاهب
يرى أنه يجب عدم التعرض للأدلة : مع التريص لوقوع شبهة فان وقعت
ذكر بقدر الحاجة . فالغزالي يرى إذن أن العالم بعلم الكلام ينبغي أن
يخصص بتعليم هذا العلم المتجرد للعلم والحرص عليه « لأن المحترف بمنعه
الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت » ومن توفر فيه الذكاء
والفطنة والفصاحة وفي طبعه الصلاح والديانة والتقوى : ولم تكن
الشهوات غالبة عليه .

ظواهر العلوم وأسرارها :

وهو يريد بهذا كنهه أن يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار :
وبعضها جلي يبدو أولاً وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب
الحثيث والفكر الصافي والسراخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى الطلوب .
ويقول إن الأسرار الخفية التي يختص القريون بإدراكها ولا يشاركون
الأكثرين في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام :

(١) أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفيام عن دركه
فيختص بدركه الخواص : وعليهم أن لا يفسوه إلى غير أهله : ومن جعلته
الروح وبعض صفات الله تعالى .

(٢) ما هو مفهوماً في نفسه لا يحل الفهم عنه ، ولكن ذكره يضر بأكثر
الستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين : فلا يبعد أن يكون ذكر بعض
الحقائق مضرّاً ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش ، فالسكفر
والزنا والمعاصي والنزور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيتته ، حق في نفسه
وقد أضر سماعه يقوم إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه وتقبض الحكمة
والرضا بالتصحيح والظلم : وكذلك سر القدر ، ولو أفشى لأوهم عند أكثر
الخلق عجزاً إذ تقصر أفيامهم عن إدراك ما يزيل هذا الوهم عنهم .

(٣) أن يكون الشيء، بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر،
والكن يكتفى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقع في قلب السامع
أغلب لأن مصلحته في ذلك : وإنما يعرف هذا السر على خلاف الظاهر إما
بدليل عقلي أو شرعي . أما العقلي فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن
كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » :
فعلم أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي . وأما المدرك
بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكناً ولكنه يروى أنه أريد به
غير الظاهر .

(٤) أن يدرك الإنسان الشيء، جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والذوق
بأن يصير حالاً ملائماً له فيثاقوت العلمان ويكون الأول كالقشر الظاهر
والثاني كاللباب الباطن .

(٥) أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال : فالقاصر يفهم يقف على الظاهر
ويعتقده نطقاً ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه : وهذا كقوله تعالى
« ثم استوى إلى السماء وهي دخان : فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ،
قالتا أتينا طائعين » فالبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما
مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير !

تقسيم الغزالي للأحياء وتقسيمها للصفوة :

ولقد قسم الغزالي كتابه (أحياء علوم الدين) إلى أربعة أجزاء :
ربع العبادات ، ربع العادات ، ربع الميسكات ، وربع النجيات ، ولكننا
وبحسبنا قاصر على الثقافة الروحية في هذا الكتاب سنتبع تقسيمه بسلام مع
البحث بعد تمهيد حديث الغزالي عن العلم : ولذا سيكون البحث في ثلاثة
أبواب : ما بينك وبين الله ، ما بينك وبين الناس ، ما بينك وبين نفسك .
وسيقسم كل باب إلى عدة فصول وكل فصل إلى عدة جزئيات حتى يسهل
البحث وحتى نستطيع أن نأتي بخلاصة وافية للحديث عن الثقافة الروحية في
هذا الكتاب الجليل .

على أننا يجب أن نلاحظ هذه الصلة القوية التي تربط بين أبواب البحث .
فالقلب قاب وصفاته هي صفاته فيما بينك وبين خالقك وبين الناس
وبينك وبين نفسك . إذا ظهر قطبها رته مشعرة باللذة في جميع هذه الصلات ،
بفوارق لا تخرج عن أن تكون في الكم والكيف في قوة الصلة . كذلك
قل عن الصلة بينك وبين الله إذ أنها إذا قويت وإذا كنت له نعم العبد ،
فإنها لا شك معبرة عما بينك وبين الناس وبينك وبين نفسك . لأنه إن
يعمر ما بينك وبين الله إلا إذا عمر ما بينك وبين الناس وما بينك وبين
نفسك . ولأنك إذا أحببت الله والناس ستكون مطمئناً ذا قلب عامر
بالإيمان خفاق بالحب :

معاني القلب والنفس والروح :

ويقول الغزالي إن القلب يطلق لمعنيين : أحدهما اللحم الصنوبري الشكل
المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف
وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعده . والمعنى الثاني هو
الطيفة وبانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتعلقه بالقلب الجسماني
يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات . والروح
أيضاً يطلق لمعنيين : أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فيصدر
بواسطة العروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن ويحرق في البدن ويفيض
أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها . والمعنى الثاني
هو الطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذي أراده الله تعالى بقوله
« قل الروح من أمر ربي » .

والنفس هو أيضاً مشترك بين معان وتعلق بفرضنا منه معنيان :
أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان . وإليه
الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » والمعنى
الثاني هو الطيفة التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته ،
واسكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فهي النفس

الطمثنة إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات
والنفس اللوامة إذا صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة عليها، والنفس
الأمارة بالسوء، إن أذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان.

جنود القلب :

ويقول الغزالي إن للقلب جندين جنود يرى بالأبصار وهي سائر
الأعضاء الظاهرة والباطنة (وقد خلقت مجبولة على طاعته) وجنود باطنة
لا ترى إلا بالبصائر وتخصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث (قد يعبر عنه بالإرادة)
ومستحث إما إلى جلب النافع الموافق (كالشهوة) وإما إلى دفع الضار للنافي
(كالغضب) والثاني القدرة وهو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ؛
والثالث (الإدراك والعلم) وهو المدرك للتعرف للأشياء كالجواسيس ، وهو
قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس .

ويقول : إن مع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة (وهي
الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات
لهذه الجنود) . وهذا الصنف الثالث ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل
الظاهرة وهي الحواس الخمس ، وإلى ما أسكن منازل باطنة وهي تجاويف
الدماغ وهي أيضا خمسة : حس مشترك وتخيّل وتفكير وتذكر وحفظ .
ويضرب لنا أمثلة القلب مع جنوده الباطنة فيقول : إن جنودى
الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاماً ؛ فيعينه ذلك على طريقته
الذى يسلكه ، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملسكاه
ويستعبده وفيه هلاكه . والقلب جنود آخر وهو العلم والحكمة والتفكير
وحقه أن يستعين بهذا الجنود .

ويقول إن الإنسان اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك
اجتمعت عليه أربعة أنواع من الأوصاف مجموعة في القلب (وهي السبعية
والبهيمية والشيطانية والربانية) .

وعمل العلم هو القلب ، ويرى الغزالي أنه بالإضافة إلى حقائق المعلومات

كالمرآة بالإضافة إلى صور التلونات ، فكما أن المتلون صورة ، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتضج فيها .

أسباب خلو القلب عن العلوم :

والعالم عند الغزالي عبارة عن القلب الذي فيه مثال حقائق الأشياء ، والعلوم عبارة عن حقائق الأشياء ، والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة ، والقلب مرآة مستعدة لأن تنجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها ، ويرى أن القلوب إنما خلت عن العلوم التي خلت عنها لأسباب خمسة :

(١) نقصان في ذاته : كقلب الصبي .
(٢) لكدورة العاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات : فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاله .

(٣) أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة ، فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه لا تتضح فيه جليلة الحق لأنه لا يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطامات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية . فلا يكشف له إلا ما هو متفكر فيه .

(٤) الحجاب : فإن الطمع القاهر لشهواته التجرد الفكري في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقى من ظاهر التقليد .

(٥) الجبل بالحجة التي يقع منها العنور على المطلوب : فإن طالب العلم لا يمكنه أن يحصل العلم بالجهنم إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه

حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق
الاعتبار ، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتتجلى حقيقة
المطلوب لقلبه .

تصفية القلب :

ويرى الغزالي أن مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب
وتزكياته وحلاؤه « قد أفلح من زكاه » ويرى أن مراد تزكياته حضور
أنوار الإيمان .

الباب الأول

ما بينك وبين الله

« روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل لـ رسول الله .
يا رسول الله أين الله ؟ في الأرض أو في السماء ؟ قال : في قلوب
عباده المؤمنين »

الفصل الأول

معرفة الله

١ — العلم بالله : يقول الغزالي إن « خاصية الإنسان العلم والحكمة .
وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله . فبه كمال الإنسان . وفي
كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال . فالبدن مركب
لنفس والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجلها
خلق ، نخاصية الإنسان هي معرفة حقائق الأشياء » : ويقول : إن جملة عالم
المسكوت والملك إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأنها
محيطة بكل الموجودات « إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله
ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة . وهو
سبب استحقاق الجنة بحسب سعة معرفته وبقدر ما تجلى له من الله
وصفاته وأفعاله »

٢ — ويقول إن المعلوم التي ليست ضرورية إنما تحصل في القلب في
بعض الأحوال وتختلف الحال في حصولها . فتارة تهجم على القلب إلهاما

(لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل) كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري .
ونارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم اعتباراً واستبصاراً . وأن
القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها ، لولا الحجب ،
وفد تهب ربح الألفاظ وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فينجلي فيها
بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ . ويكون ذلك نارة عند المنام ،
فيعلم به ما يكون في المستقبل . وتنام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف
الغطاء ، وينكشف أيضاً في اللحظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله
تعالى فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم نارة
كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي إلى حد ما دوامه في غاية الدور .
ولذلك لم يحرص أهل التصوف على دراسة العلم وتحصيل ما صنعه المصنفون
بل قالوا « الطريق الإقبال على الله تعالى » .

٣ - ولذا يرى الغزالي أن اسم الفقه في العصر الأول كان مطلقاً على
علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومقدمات الأهمال وقوة
الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على
القلب ، وأنه كان متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن بطريق
المعوم أو بطريق الاستنباع وأن قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها »
أراد به معاني الإيمان دون الفتاوى . وكذلك يرى أن لفظ العلم كان
يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عبادته وخلقه ، وقد صار الآن
مطلقاً على من لا يحيط بعلوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل
خلافية . وكذلك كان التوحيد عبارة عن أن يرى الأمور كلها من الله
عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر
كأنه إلا منه جل جلاله .

ولذا كان التذكير المحمود شرعاً هو التذكير في علم الآخرة والتفكير
بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأهمال وخواطر الشيطان ووجه
الحذر منها ، والتذكير بآلاء الله ونعمائه وتقدير العبد في شكره ، وتعريف

عيوب الدنيا وتصرفها ونكث عهدها وخطر الآخرة على الدنيا .
ويرى أنه لا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة
على سبيل استشهاد واستئناس .

والحكمة^(١) هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى : « يؤتى
الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

٤ — ولذا يرى أنه يجب على الإنسان أن يفهم التوحيد بأن يرى الأشياء
كلها من مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط
مسخرة لأحكامها . وأن يوقن بالتواب والعقاب بأن يغلب على قلبه أن
من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، موقناً
بأن الله تعالى مطلع عليه في كل حال مشاهد له واجس ضميمه وخفايا خواطره
وفكره ، ويظهر أثر الخشية عليه ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً
الله تعالى ، وكانت صورته دليلاً على عمله ، فيكون أكثر بحسنه عن علم الأعمال
(فإن أصل الدين التوقي من الشر) ، ويكون اعتماده في علومه على بصيرته
وإدراكه بصفاء قلبه ، وأن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور .
وإن اتفق عليها الجمهور .

٥ — معنى كاتى الشهادة : ويقول الغزالي إن معنى كاتى الشهادة أن الله
منزه ليس بحجم مصور ولا جوهر محدود مقدور ، لا يماثل الأجسام لا في
التقدير ولا في قبول الانقسام ، ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض
ولا تحله الأعراض ، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثل موجود ، ليس كمثل شيء ،
ولا هو مثل شيء ، لا يحده التقدير ولا يحويه الأفكار ، ولا تحيط به الجهات
ولا تكسفه الأرضون ولا السموات ، وهو قريب من كل موجود وهو
أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد ، تعالى عن أن يحويه
مكان كما تقدس عن أن يحده زمان ، بائن عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه

(١) ويعترض الغزالي على إطلاق اسم الحكيم على الطبيب والشاعر والنجم .

ولا في سراء ذاته ، مقدس عن التغير والانتقال ، لا تحله الحوادث ولا تعثره
العوارض . بل لا يزال في نعوت جلاله منزهاً عن الزوال وفي صفات كماله
مستغنياً عن زيادة الاستكمال . وهو في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرتى
الذات بالابصار . وهو تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعثره قصور ولا عجز ؛
ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وهو ذو الملك
والملكوت والعزة والجبروت . وهو عالم بجميع المعلومات . محيط بما يجري
من تحوم الأرضين إلى أعلى السموات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في
الأرض ولا في السماء . يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات
الخواطر وخفيات السرائر يعلم قديم أزلي ، وهو تعالى مرید للكائنات مدير
للحادثات . بل هو المبدئ . العبد الفعال لما يريد . لا راد لأمره ولا معقب
لقضائه ولا مهرب لعبده عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته . ولا قوة على طاعته
إلا بعونه وإرادته . وهو تعالى سميع بصير . يرى من غير حدة
وأجفان . ويسمع من غير أصمخة وآذان . وهو تعالى متكلم آمر ، ناه ،
واعد متوعد . بكلام أزلي قديم قائم بذاته . لا يشبه كلام الخلق ، فالقرآن
والتوراة والإنجيل والزيور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وهو
سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله
على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها . حكيم في أفعاله . وأما الكلمة
الثانية فهي الشهادة المرسل بالرسالة . وأنه بعث النبي الأمي القرشي
محمداً صلى الله عليه وسلم برسالاته إلى كافة العرب والعجم والجن والأنس .
ففسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها . وفضله على سائر الأنبياء
وجعله سيد البشر . ومنع كل الإيمان بشهادة التوحيد ما لم تقتض
بها شهادة الرسول . وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به من أمور
الدنيا والآخرة .

٦ — ويقول النزائي إن الركن الأول من أركان الإيمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنه واحد ، وأن مدار هذا الركن على عشرة أصول :

(١) معرفة وجوده تعالى (والحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب محدثه ، والعالم حادث ، فإذا لا يستغنى في حدوثه عن سبب) .

(٢) العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل . أزلي ليس لوجوده أول (وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث واقتصر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية ، وما تسلسل لم يتصل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأول) .

(٣) العلم بأن الله تعالى ليس لوجوده آخر . فهو الأول والآخر والظاهر والباطن (لأن ما ثبت قدمه استحالة عدمه . وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو : إما أن ينعدم بنفسه أو بعدمه بإضاده : ولو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه . جاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه ، فلو جود سبب وللعدم سبب ، وباطل أن ينعدم بعدمه بإضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصور الوجود معه) .

(٤) العلم بأنه تعالى ليس بجوهر بتجيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الخيز .

(٥) العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر (لأن كل جسم مختص بجيز ومركب من جوهر ، والجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهوية والقدر : وهذه سمات الحدوث) .

(٦) العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل (لأن العرض ما يحل في الجسم ، وكل جسم هو حادث لا محالة ويكون محدثه موجوداً قبله ، والله موجود في الأزل وحده ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ، وهو عالم قادر مريد خالق ، وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض) .

(٧) العلم بأنه تعالى منزّه الذات عن الاختصاص بالجهات (إذ هو الذى خلقها بواسطة خلق الإنسان ، وما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء إلا لأنه قبلة الدعاء ، ولما فيه من إشارة إلى ما هو وصف للدعوى من الجلال والكبرياء) .

(٨) العلم بأنه تعالى مستوعب عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالإستواء ، وهو الذى لا ينأى وصف الكبرياء ولا يشترق إلى سمات الحدوث والقضاء وهو الذى أريد بالإستواء إلى السماء .

(٩) العلم بأنه تعالى مع كونه منزّها عن الصورة والمقدار ، مقدساً عن الجهات والأقطار ، مرئى بالآعين والأبصار فى الدار الآخرة لقوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » (والرؤية نوع كشف وعلم ، إلا أنه أتم وأوضح من العلم) .

(١٠) العلم بأنه عز وجل واحد لا شريك له و « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (فلو كانا اثنين وأراد أحدهما أمراً ، فالثاني عاجز مقهور إن كان مضطراً إلى مساعدته ، وإن قدر على مخالفته فهو قوى قاهر والأول ضعيف قاصر) .

وأما الركن الثانى من أركان الإيمان فهو العلم بصفات الله تعالى ، بأنه « هو على كل شيء قدير » و « هو بكل شيء عليم » ، وأنه حي ، وأنه هو البدي ، المعبد ، الفعال لما يريد ، سميع (بلا أذن) بصير (بلا حدقة) ، لا يعزب عن رؤيته هو اجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير . وأنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره .

وأن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث داخل تحت التغير ، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتبره التغيرات ولا تحل الحادثات (فكلام الله قديم

وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه . وأن ذاته قديم (فلم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي) وأن إرادته وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها الثلاثة بها على وفق سبق العلم الأزلي (إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريداً لها) .

والركن الثالث من أركان الإيمان هو العلم بأفعال الله تعالى ، وأن كل حادث في العالم هو فعله وخلقته واختراعه ، وأن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد ، لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل ألا كتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً ، وخلق الاختيار والمختار جميعاً ، وأن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد ، فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه وتعالى ، وأن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتشكيف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه ، إذ هو الموجب والأمر والتأهي . وأنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه ، وأن لله عز وجل إيلاء الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير نواب لاحق . لأنه متصرف في ملكه (والظلم عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه . وهو محال على الله تعالى) ، وأنه تعالى يفعل لعباده ما يشاء ، فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده (إذ القبيح مالا يوافق الغرض ، فإن أريد بالقبيح مالا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح ، كما لا يتصور منه ظلم . وإن أريد القبيح مالا يوافق غرض الغير فهذا مجرد تشبه ، ثم معنى الحكيم العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته) . وأن معرفة الله سبحانه وتعالى وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل ، خلافاً للمعتزلة (لأن العقل وإن أوجب الطاعة فإما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال ، لأن العقل لا يوجب العبث ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض . والغرض محال في حق المعبود تعالى ، ولا غرض هنا

للعبد في الحال إذ يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه ، وليس في المال
إلا الثواب والعقاب) ، وأنه لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام ،
وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين .
ويحدثنا الغزالي عن ركن رابع من أركان الإيمان سماه السمعيات وأهمها
الحشر والنشر و « من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول
مرة » وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وأن الجنة
والنار مخلوقتان .

٧ - الإيمان والإسلام : ويقول إن موجب اللغة أن الإسلام أعم
والإيمان أخص ، لأن الإيمان لغة عبارة عن التصديق (وعمل التصديق
القلب ، واللسان ترجمانه) . وأما الإسلام فعبارة عن التسليم (وهو عام في
القلب واللسان والجوارح) وقد ورد الشرع باستعمالهما على سبيل الترادف
والتوارد كقوله تعالى « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا إن كنتم
مسلمين » وورد على سبيل الاختلاف كقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ،
قل لم تؤمنوا ولا كنن قولوا أسلمنا » . وورد على سبيل التداخل كما ورد أن
النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أي الأعمال أفضل فقال « الإسلام »
سئل أي الإسلام أفضل فقال « الإيمان » .

ويقول الغزالي إن الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه (١) :

(١) أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير
كشف والتمساح صدر ، وهو إيمان العوام . وهذا الاعتقاد عقدة على القلب
تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي ، والعمل يؤثر في ثبات هذا
التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في ثبات الأشجار . ولذلك قال تعالى
« ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » ، فالإيمان يزيد وينقص وذلك بتأثير الطاعات
في القلب .

(١) وهو عندنا من ثلاثة أوجه : (١) إيمان العوام (٢) وإيمان

العلماء (٣) وإيمان الكهنة (٤) وإيمان المشايخ (٥) وإيمان الرهبان (٦) وإيمان

العلماء (٧) .

(٢) أن يراد به التصديق والعمل جميعاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم
« لا يرزى الزاني حين يرزى وهو مؤمن » .

(٣) أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف والشرح الصدر
والشاهدة بنور البصيرة . وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ، ولكن
يلاحظ أن الأمر اليقيني الذي لا شك فيه ، يختلف طمأنينة النفس إليه ،
فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أو أكثر من الواحد ، طمأنينتها إلى أن
العالم مصنوع حادث ، وإن كان لا شك في واحد منهما . فإن اليقينيات
تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها .

فالغزالي يرى السبيل الموصلة لمعرفة الله معرفة صفاته وأفعاله . وأن
معرفة الله الحققة مؤدية إلى أن نعرف أن « الله أكبر » وهذه المعرفة تصل
بك إلى أن يكون رجاؤك في الله وحده وعملك له وحده ، وهذا يصل بك
إلى أعظم مرتبة من مراتب التوحيد التي ستحدثك عنها في الفصل الآتي ،
وتصل بك هذه المرتبة العظيمة إلى ما هو أعظم منها بأن ينكشف لك
ألا فاعل إلا الله تعالى وأن كل شيء في الوجود من الله وبالله والله .

الفصل الثاني

توحيد الله والتوكل عليه

٨ — مراتب التوحيد : ويقول الغزالي إن التوحيد يترجمه قولك لا إله إلا الله وحده لا شريك له : وإن هذا التوحيد له أربع مراتب :
(١) أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكسر له . وهذا يسمى توحيداً منقوضاً للتثليث الذي صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره^(١) .

(٢) أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام^(٢) .

(٣) أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار .

(٤) أن لا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه .

ويوضح الغزالي المرتبة الثالثة^(٣) بأن يكشف لك ألا فاعل إلا الله تعالى

(١) وهذا توحيد المنافقين ويسميه الغزالي قصر التوحيد .

(٢) ويسمى الغزالي هذا بالضمير الذاتي للتوحيد وهو أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشمل ظاهر القلب على اعتقاده والتصديق به وهو توحيد عوام الخلق ، والذين يكلمون حراس هذا القصر عن تشويش المتدعة .

(٣) ويسمونها باب التوحيد بأن يرى الأمور كلها من الله وأن يعبد عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره . ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى ، فكل منتهى هواه فقد اتخذ هواه معبوداً .

وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم : فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه « فإن تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . وإذا انكشف لك هذا ، لم تنظر إلى غيره . بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فانه الفاعل على الاتقراء دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض . ويضرب لنا الغزالي مثل القلم وقد خط به صاحبه كلمة نجاة لك مثلاً قيل تنسب هذه النجاة للقلم أم تنسبها لصاحبه ؟ لا ريب أن تلك الكلمة وقد يكون فيها لك الخير كما منسوبة لمن بيده القلم ، ولكن هل يملك لك حامل القلم أقل نفع أو أقل ضرر ؟ الجواب : لا . . . لأنه لا يملك لنفسه جلب أقل نفع أو دفع أقل ضرر ، فيجب إذن أن لا ترجو سوى الله لأن حامل القلم (وهو في مثالنا مصدر الأمر) مسخر تحت قهر الله وقدرته مرهدة في قبضته . فالله هو الأول بالإضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد . وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقبين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر في الشهادة أول في الوجود ، وهو الباطن بالإضافة إلى العالمين في عالم الشهادة الطالبين لأدراكه بالحواس الخمس ، وهو الظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت .

ولكن ما القول في أمر زيد (وليكن بترقية فلان أو بفصله من وظيفته) أليس إذا شاء أن يكتب كتب وإن شاء أن يمتنع امتنع ؟ يقول الغزالي إن الفعل الاختياري (ككتابة الإنسان بالاصابع) والفعل الإرادي (كتنفسه بالرئة والحجرة) منسوب إليه ، ولكن الخير ظاهر في الفعل الطبيعي (كالتنفس) لأنه ضروري « فالفعل الاختياري هو

مقتضى الالتباس وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة إ شاء
وتارة لا إ شاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، ولكن يوضحه أن الإرادة تتبع
ناعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك . والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك
الظاهرة أو الباطنة بأنه لا يوافقك من غير جبر وتردد وإلى ما قد يتردد
العقل فيه . فالذي تقطع به من غير تردد أن يقصد بدتك بسيف فلا يكون
في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق لك فلا جرم تنبعت
الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتحصل حركة اليد بدفع السيف من غير
روية فـكرة ويكون ذلك بالإرادة . ومن الأشياء ما يتوقف التمييز
والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا ، فيحتاج إلى روية وفـكر حتى
يتميز أن الخير في الفعل أو الترك . فإذا حصل بالفـكر والرؤية العلم بأن
أحدهما خير ، التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفـكر ، فانبعثت
الإرادة منها كما تنبعت لدفع السيف ، فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه
خير ، سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعاث إلى ما ظهر
للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة . فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة
وهي التي انبعثت منها بإشارة العقل فيها له في إدراكه توقف ، ولا ينصور
أن تنبعت الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل . فإذا
معنى كونه مجبوراً أن ما حصل حصل من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختاراً
أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً
موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فإذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار
في الاحتراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الإنسان على
منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار يسمى كسباً .

ويقول الغزالي إن حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة
الأزلية . فبعض القدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط
على الشرط . فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ، ولا علم إلا
بعد حياة ، ولا حياة إلا بعد محل الحياة ؛

ولكن كيف الجميع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لا فاعل
إلا الله تعالى . ومعنى الشرع إثبات الأفعال لعباده . فإن كان العبد فاعلا
فكيف يكون الله تعالى فاعلا . وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون
العبد فاعلا ؟ يقول الغزالي إن الله فاعل بمعنى أنه المخرع للوجود . ومعنى
كون العبد فاعلا أنه العمل الذي خلق فيه الإرادة بهذا أن خلق فيه العلم
فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط . وارتبط
بقدرته الله ارتباط المعلوم بالعللة وارتباط المخرع بالمخرع « وما رميت
إذ رميت : ولكن الله رمى » فاسم الفاعل في الحقيقة لله ولغيره بالجناس .

٩ — التوكل على الله : ويقول الغزالي « إن لمقام التوكل على الله اعتقاداً
قاطعاً لا يشترط فيه وهو أن يصدق تصديقاً يقيناً لا ضعف فيه ولا ريب
أن الله عز وجل لو خلق الخلق كما هم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم : وخلق
لهم من العلم ما تحمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها
ثم زاد عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور
وأطلعهم على أسرار المكوت وعرفهم دقائق العلق وخفايا العقوبات حتى
أطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والمكوت
بما أعطوا من العلوم والحكم . لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر
عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة
ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن ينقص منها
ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عن بلى به
ولا يزال صحة أو كمال أو غنى أو نقص عن أنعم الله به عليه : بل كل
ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا
فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور : وكل ما قسم الله تعالى بين
عباده من رزق وأجل وسرور وحزن ومحجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة
ومعصية فلكاه عدل محض لا جور فيه : وحق صرف لا ظلم فيه : بل هو
على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي وليس في

الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ، ولو كان ادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإهبة ، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة ، وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص ، فهو نعيم بالإضافة إلى غيره إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما نعلم الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة . فالغزالي يقول إن الخير والنشر مقضى به وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

ويقول « إن التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ، فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بحمة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتسكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول (حركة) ولا قوة (قدرة) إلا بالله » . ويقول إن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فهذا إما لضعف اليقين بإحدى هذه الحصائل الأربعة وإما لضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه . فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته .

١٠ — ويرى الغزالي أن التوكل في القوة والضعف ثلاث درجات :
(١) أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحالته في الثقة بالوكيل ، وهذا لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيه به ، أو التدبير الذي عرفه من عاداته وسنته دون صريح إشارته .

(٢) أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفرع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها . وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماء وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفزعه فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طمع ، فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه ، كاف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً ، وهذا يقتضي ترك السؤال من غير الله .

(٣) أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الفاسل ، لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الفاسل الميت ، وهو الذي قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبراً ، فهو مثل صبي علم أنه وإن لم يزق بأمه فالأم تطلبه ، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسأها اللبن فالأم تفاحمه وتسقيه . وهذا المقام في التوكل يشترط الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسأل . فكم من نعمة ابتدأها (قبل السؤال والدعاء) بغير الاستحقاق .

١١ — وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب باليد وترك التدبير بالقلب . والسقوط على الأرض كالمطرقة الملقاة كاللحم على الوضغ . فيقول الغزالي إن هذا ظن الجاهل ، فالمقطوع به (وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت بالسبب بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف) أن لا شيع بلا أكل وأن الخبز لا يسعى إليك بل تسعى إليه ، وأنت الذي تخضع وهو لن يخضع نفسه ولن يسخر الله لك ملكاً لتوصيله إلى معدتك . والمقطوع به أن الثمر لا يأتي من غير زرع . وأنت لن يكون لك نسل من غير زواج . وهكذا . . . فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالعلم (بأنه تعالى خلق الطعام واليد والأسنان الخ . . . وأنه الذي يطمعك

ويستقيت (والحال) بأن يسكن قلبك وتعتمد على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام الخ . . . لأن اليد قد تفلج وقد يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلت ويبطل حركتك الخ . . .)

أما الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن السببات لا تحصل دونها (كالذي يسافر في البوادي التي لا يطرأ فيها الناس إلا نادراً ويكون سفره من غير استصحاب زاد) فهذا ليس شرطاً في التوكل ولكن فعله جائز بشرط أن يكون قد راض نفسه وجهدها وسواها على الصبر عن الطعام (مثلاً) أسبوعاً وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى .

أما ملازمة الأسباب التي يقوم إفضاؤها إلى السببات من غير ثقة ظاهرة . كالذي يستقصى في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه . فذلك يخرج بالكفاية عن درجات التوكل كافي وهو الذي فيه الناس كثر أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً مألماً مباح . فأما أخذ الشبهة أو الاكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدقيا والانتكال على الأسباب . فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل . أي أن الغزالي يرى أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعاقب بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج . وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون . وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الانتكال على مسبب الأسباب . فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المقنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً . ويقول إن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله . ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عده . والمحذور ما يشغلي عن الله عز وجل . وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها . ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات . فلم يأمر التاجر بترك تجارتها ولا المحترف

بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في الصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى ، فالتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة . ويقول الغزالي إن صواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخار ، فلما المعيل فلا يخرج عن حيد التوكل بادخار قوت سنة لغيره ، جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم .

والضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال ، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً ، أما في النفس فكأنوم في الأرض السبعة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فيكل ذلك منتهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك ، ولكن يلاحظ أن ترك اللوهوم منها (وهى التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الرقية والسحر) من شرط التوكل ، ولترك الأسباب الدافعة إن كانت مقطوعة (أو مظنونة) وجه إذا ناله الضرر من انسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع وانتفى فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، وأما الصبر على أذى الحيات والديباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل فى شيء إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لأعانه على الدين وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال فلا يمتنع التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً إذ قال تعالى « خذوا حذركم » وقال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهل البعير وقال توكلت على الله « اعقلها وتوكل » ، وهو يكون متوكلاً بالعلم (بأن يعلم أن اللص مثلاً إن اندفع لم يندفع بكمايته فى اغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه) والحال (بأن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى به فى بيته ونفسه من خير وشر) .

والأسباب المزيله للضرر أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالما ، والزيل للضرر

العضش والخيز الزيل لضرر الجوع، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب
الدواء المسهل وسائر ابواب الطب أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة
بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب، وإلى موهوم كالسكى والرقية
أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت،
وأما الموهوم فمشرط التوكل تركه، والاعتقاد عليه والاتكال إليه غاية
التعمق في ملاحظة الأسباب. وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة (كالمداداة
بالأسباب الظاهرة عند الأطباء) : ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف
الموهوم. وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع، بل قد يكون أفضل من فعله
في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص (ومن أودع العقاقير منافع الأشياء
غير الله) . ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل الرسول الكريم
وقوله « تداووا عباد الله، فإن الله خلق الداء والدواء » .

ويقول الغزالي إن كتان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلا، من كنوز
البر، لأن الرضى بحكم الله والقسر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل
فكتانه أسلم عن الآفات، ومع هذا فلا ظيار لا بأس به إلا إذا صححت
فيه النية والمقصد، ومقاصد الاظهار ثلاثة :

(١) ان يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره
لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية .

(٢) أن يصف لغير الطبيب. وكان ممن يقتدى به : وكان مكينا في المعرفة
فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض، بل حسن الشكر .

(٣) أن يظهر بذلك مجزه وإفتقاره إلى الله تعالى وذلك بحسن ممن
تلق به القوة والشجاعة .

الفصل الثالث

عبادة الله تعالى

١٢ — الطهارة : قال تعالى « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ، ولنكن يريد ليظهركم » ، ويقول الغزالي إن لهذه الطهارة أربع مراتب :

(١) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (بالاستنجاء فإذا فرغ منه اشتغل بغسل بازالة ما على اليدين من نجاسة إن كانت . وصب الماء على الرأس ثم على الشق الأيمن ثم الشق الأيسر ثلاثة في كل) فإذا فرغ منه . . . اشتغل بالوضوء بغسل يديه والضمضة والاستنشاق وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين — ثلاثاً في كل — أو التيمم بالمسح بالتراب الخالص اللين إن تعذر عليه استعمال الماء لفقده أو عانعه له عن الوصول إليه ، أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو عطش رفيقه أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضى .

(٢) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

(٣) تطهير القلب عن الأخلاق الذمومة والردائل المعقوتة .

(٤) تطهير السر عما سوى الله تعالى .

١٣ — الصلاة : والصلاة ذكر لله عز وجل ، إذ قال الله تبارك وتعالى

« وأقم الصلاة لذكري » ويقول الغزالي إن الذكر في الصلاة هو محاورة

ومناجاة مع الله عز وجل (حمد وثناء وتضرع ودعاء) ، والمقصود الحروف

من حيث أنه نطق ، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير ،

ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما

التمتعيم قطعاً ولا يكون معظماً لله عز وجل الغافل عنه ، فحضور القلب هو روح الصلاة .

وعلاج إحضار القلب صرف الهمة إليها ، وكذلك يجب التمتعيم بأدماز الفكر بعد حضور القلب وصرف الذهن إلى إدراك المعنى بالإقبال على الفكر ودفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها بالزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها وهجوم حب الله على القلب لتصفو صلاتك عن الخواطر . وكذلك يجب عليك في صلاتك تعظيم الله بعرفة جلاله وعظمته وحقارة النفس وخسرتها . وأن تهابه (والهيبة خوف مصدره الاحلال) وأن تكون راجياً بصلاتك ثواب الله عز وجل وأن تكون حياً مستشعراً التقصير في العبادة متوهماً الذنب لعلمك بالمعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل .

١٢ - سبب موارد الخواطر : ويقول الغزالي رضي الله عنه « إن سبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطنياً : أما الخارج لما يفرغ السمع أو يظهر للبصر ، فإن ذلك قد يختلف الهم حتى يسهو وينصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل . ومن قويت اليقظة وعلت همته لم يلبه ما جرى على حواسه ، ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فأكبره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب (بأن يفض بصره أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تسمع مسافة بصره) . وأما الأسباب الباطنة فهي أشد ، فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا ، لا ينحصر فكره في فن واحد ، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى قيم ما يقرؤه في الصلاة وشغلها به عن غيره ، ويمينه على ذلك أن يستعمله قبل التحريم بأن يحدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة ، فإن كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء يسكن فلا ينجيه إلا العمل الذي يجمع مادة الدواء من أعماق العروى ، وهو أن يشار في الأمور الصارفة الشاغلة له عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود

إلى مبعاته . وأنها وإنما صارت مهمات لثمرواته فيعاقب نفسه بالزروع عن
الشموات وقطع تلك العلائق . أما الشهوة القوية الرهقة فلا ينفع فيها
التسكين . بل لا يزال يجاذبها ويجاذبه ثم تغلبه وتنقض جميع صلاته في
شغل المجاذبة »

١٥ — الزكاة : وقد قال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .
وهو ربع العشر . ويقول الغزالي إن على مريد الآخرة بزكاته وظائف :

(١) فهم وجوب الزكاة ومعناها ، ووجه الامتنان فيها شكر النعمة
وإظهار النفس من صفة البخل بأن تتعود بذل المال وامتنان حينئذ لله
بمفارقتنا لجزء من أموالنا « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم .
بأن هم الجنة » .

(٢) التعجيل عن وفات الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتنال بإيصال
السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات .
(٣) الأصرار . فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة .

(٤) أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء .

(٥) أن لا يفسد صدقته بالذن (بذكرها) والأذى (بإظهارها) والشكر
على الآخذ وتعميره بالفقر واتهماره وتوبيخه .

(٦) أن يستصغر العظيمة فإنه إن استعظمها أعجب بها . والعجب
محبط للأعمال .

(٧) أن يتقن من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه .

(٨) أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة . فيطالب الأتقياء . لأن
التي يستعين به على التقوى . وأن يكون من أهل العلم خاصة إهانة له على
العلم . وأن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد بأنه إذا أخذ العطاء
حمد الله عز وجل وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة . وأن
يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى . أو يكون من أهل
الرؤية ممن ذهب نعمته وبقيت عادته . وأن يكون معيلاً أو محبوساً

بمرض أو سبب من الأسباب ، وأن يكون من الأقارب فتكون صدقة
وصلة رحم ، والأصدقاء ، وإخوان الخير يتقدمون على العارف كما يتقدم
الأقارب على الأجانب .

١٦ - القابض : ويرى الغزالي أن وظائف القابض :

(١) أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة ليكني همه بجعل
همومه هماً واحداً وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر ، ولتكن نيته
فيه أن يتقوى به على طاعة الله ، فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله
عز وجل . وإلا كان مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه .

(٢) أن يشكر المعطى ويدعو له ويتقى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه
بحيث لا يخرج منه كونه واسطة واسكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه
إليه ، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه ، ومن تمام الشكر أن
يستر عيوب العطاء ، إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع
إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس ضيعه .

(٣) أن ينظر فيما يأخذه ، فإن لم يكن من حل : تورع عنه « ومن
يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

(٤) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ
إلا للقدار للبإح ، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق (١)

١٧ - صدقة التطوع : ويوجد في الإسلام غير الزكاة صدقة التطوع

إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ، فإن
لم تجدوا فبكملة طيبة » ، ويقول الغزالي إنما لا يحكم حكماً باتاً بأن إخفاء
الصدقة أفضل في كل حال أو إظهارها أفضل ، بل يختلف ذلك باختلاف
النيات ، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص ، وإن كان على

(١) كأن كان فقيراً أو مريضاً أو غريباً في سبيل الله أو ابن - يبل الخ الخالية

(راجع آية إنما الصدقات للفقراء والمساكين ...) .

الجملة الأخذ في الملأ والرد في المرأ حسن المسالك وأسلمها ، والاخفاء أبقى
للسر على الأخذ ، وأسلم لقلوب الناس وألستهم (فانهم ربما يحسدون
أو ينكرون عليه أخذه) ، وإمانة المعطى على إسرار العمل ، وعدم
اذلال وامتهان الأخذ (وليس للمؤمن أن يذل نفسه) ، واحتراز عن
شبهة مشاركة الحاضرين فيها . ولكن مع هذا في الاظهار والتحدث
اخلاص وصدق وإقامة لسنة الشكر « وأما بنعمة ربك فحدث » ويبان أن
العارف لا ينظر له إلا إلى الله عز وجل ، والسر والعلانية في حقه واحد .

١٨ — الصوم : أما الصوم فيقول الغزالي فيه إنه ثلاث درجات : صوم
المعصوم (بكف البطن والفرج عن قضاء الشهوة) وصوم المخصوص (بكف
السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام) وصوم
خصوص المخصوص (بصوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية ،
وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية) . وأما صوم المخصوص بكف
الجوارح عن الآثام ، فتمامه بستة أمور :

(١) غرض البصر وكفه عن الاتساع في النظر (النظر بشهوة) إلى كل
ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلبس عن ذكر الله عز وجل .

(٢) حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والخيبة والخيلة والفحش
والجفاء والخصومة والراء ، وإزاهم السكوت وشغله بذكر الله سبحانه
وتعالى وتلاوة القرآن .

(٣) كف السمع عن الاصغاء إلى كل مكروه ، لأن كل ما حرم قوله
حرم الاصغاء إليه .

(٤) كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل وعن الكارء ،
وكف البطن عن الشبهات وقت الأفطار (بالكف عن الطعام الحرام) .

(٥) أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الأفطار بحيث يمتلئ
جوفه . إذ مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى

(٦) أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين خوف رد صومه

ورجاء قبوله .

١٩ - الحج : وقد فرض الله تعالى الحج على كل مسلم بالغ عاقل حر
مستطيع^١ ويقول الغزالي إن أول الحج فهم موقعه في الدين ، ويوضح
ذلك بقوله إنه لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتره عن الشهوات والتجرد
لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات ، ولأجل هذا انقرد الربانيون في
الليل إلى الله عن الخلق والنحازوا إلى قلل الجبال ، فالحج رهبانيتنا ، فشرّف الله
البيت العتيق بالاضافة إلى نفسه تعالى ، وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً
لأمره وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، يقصده الزوار من كل
فج عميق شعناً غيراً متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، مع الاعتراف
بتتريه عن أن يحويه بيتاً أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ في عبوديتهم
وأتم في ادعائهم . ولذلك وُظف عليهم أهمالاً لا تأنس بها النفوس
ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا
والمروة على سبيل التكرار وذبح الهدى . فإذا تحقق بأن البيت بيت الله
فنبهت شوقه للحج ، وبعد الشوق يأتي العزم على الحج ، فيجب أن يجعل
عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى ، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة ،
فإذا عزم فیری الغزالي وجوب قطع العلائق ويضمره بأنه رد الظالم والتوبة
المخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي . ويقول بوجوب أن يطلب الزاد من
موضع حلال ، وليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر وأن زاده
التقوى . وإذا أحضر الراحة فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل
له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة . وليتذكر عنده الراكب
الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنّازة التي يحمل عليها . وإذا اشترى
نوبى الإحرام ليتزر بها عند القرب من بيت الله عز وجل ، فليتذكر عنده

١١١ - أن تكون صفة من ذلك ، وأن يكون عازي الله ، وأن يجد الله ذهابه وإيابه

في نفسه ، وأن يترك نفسه من ربه في هذه الدنيا .

فليكن^(١) واقفه فيه عند لقاء الله عز وجل . فاذا خرج من البلد ، فليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول . وإذا دخل البادية إلى الميقات وشاهد تلك العقبات ، فليتذكر فيما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وإذا أحرم ولبي من الميقات ، فليعلم أن معناه اجابة نداء الله عز وجل ، فليرج أن يكون مقبولا وليخش أن يقال له لا ليك ولا سمعديك . فاذا دخل مكة ، فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل . فاذا وقع بصره على البيت فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لب البيت لشدة تعظيمه إياه ، وليذكر انصباب الناس في القيامة إلى حبة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . وبهذه المعاني يفسر الغزالي باقي الأعمال فيقول إن الحاج إذا طاف بالبيت فليعلم أنه صلاة ، وليعلم أنه بالطواف منسبه بالملائكة المقرين الحافين حول العرش الطائفين حوله . ولا يظن أن القصد طواف جسمه بالبيت بل طواف القلب بحضرة الربوبية ، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب . فاذا استلم فليعتقد عنده أنه مبايع لله عز وجل على طاعته ، فليصمم عزيمته على الوفاء ببيعته . فاذا تعلق بأستار الكعبة والتصق بالمأتم ، فليكن نيته في الأثرام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ، وليكن نيته في التعلق بالأستار الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان ، فاذا سمى بين الصفا والروة في فناء البيت ، فليتذكر عنده ترده بين كفتي اليزان في عرصات القيامة ، وليتمثل الصفا بكفة الحسنات والروة بكفة السيئات . فاذا اعتكف بعرفة ، فليذكر بما يرى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات

(١) وهذا الباب قريب من ذلك الباب إذ ليس فيه غلط كما في المتن .

واختلاف اللغات واتباع الفرق أمتهم . عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والائمة واقتراف كل أمة نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتحريرهم في ذلك الصعود الواحد بين الرد والقبول ، وإذا تذكر ذلك فليزعم قلبه الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل فيحتمل في زمرة الفائزين المرحومين . وليحقق رجاءه بالاجابة . وإذا زار المدينة : فليتذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه . فإذا زار رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغي أن يقف بين يديه بسكينة ورجل ، وليرثل صورته السكرعة في خياله وليحضر عظيم رتبته في قلبه . ويجب أن يلزم قلبه الحزن والخوف والحلم ، إذ لا يدري أيقبل منه حجه أم يرد .

٢٠ — تلاوة القرآن : ومن العبادة تلاوة القرآن . ويقول الغزالي إن ظاهر آداب التلاوة :

(١) أن يكون القارئ ، على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مطرفا رأسه غير متربع ولا متكى ، ولا جالس على هيئة التكبر .

(٢) أن يولي ما يرجع إليه في مقدار القراءة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفته » وذلك لأن الزيادة عليه تمنع الترتيل ، والترتيل هو المستحب في هيئة القرآن ، لأن المقصود من القراءة التفكير ، والترتيل معين عليه ، لأن الترتيل والتؤدة أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب من الاستعجال . ويجب أن يحسن القراءة ويرتليا بترديد الصوت من غير تمطيط منفرط بغير النظم .

(٣) أن يتمود بالله في مبتدأ قراءته ، وليقل عند فراغه صدق الله وبلغ رسوله ، ويستحب أن يركب مع القراءة وأن يراعى حق الآيات ، فإذا مر مثلا بآية سجدة سجد .

(٤) لا بد أن يحجج بالقراءة إلى حد يسمع نفسه ، لأن الجهر يوقف

قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ، ولكن الإصرار
أبعد عن الرياء .

٢١ — ويرى الغزالي أن أعمال الباطن في التلاوة :

(١) فهم أصل الكلام وعظمته وعلوه ، وفضل الله سبحانه وتعالى
ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهامهم ؛ وينبغي أن يحضر
القارىء في قلبه عظمة التكلم ويعلم أنه « لا يسه إلا المطيرون » وكما أن
ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان
متطهرا ، فباطن معناه أيضا يحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا
كان متطهرا عن كل رجس ومستنرا بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح
لمس جلد المصحف كل يد ، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لتليل
معانيه كل قلب .

(٢) حضور القلب وترك حديث النفس : والتدبير وهو وراء حضور
القلب ، والتفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، فإذا ذكر الله
خلق السموات والأرض وغيرها ، فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل
وجلاله « إذ الفعل يدل على الفاعل ، فتدل عظمته على عظمته ، فينبغى أن
يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه في كل شيء ،
إذ كل شيء ، فهو منه وإليه وبه وله ، فهو الكمل على التحقيق ، ومن لا يراه
في كل ما يراه فسكاته ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله
باطل ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه »

(٣) التخلي عن موانع الفهم : (وهي أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق
الحروف بإخراجها من مخارجها ، أو أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد
ووجد عليه وثبت في نفسه التعصب له من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة ،
أو أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى في الجلة بهوى في
الدنيا مطاع ، أو أن يكون قد قرأ تفسيره ظاهرا واعتقد أنه لا معنى لكلمات

القرآن إلا ما تناوله النقل . وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، مع أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم^(١) .

(٤) التخصيص : وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن ، فإذا سمع أمراً أو نهياً ، قدر أنه التهيؤ والمأمور ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك . وإن سمع قصص الأنبياء والأولياء ، علم أن السمر غير مقصود ، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه .

(٥) التأثير : وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل قسم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . « وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب : حفظ اللسان تصحيح الحروف بالارتيل ، وحفظ العقل تفسير المعاني ، وحفظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والافتقار ، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعطف » فيترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه . ويرى من حوله وفوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضى والزكية .

٣٣ — ذكر الله ودعاؤه : وقد قال تعالى « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالقدو والآصال : ولا تسكن من الغافلين » وقال « ادعوني أستجب لكم » إن الذين يستكبرون عن عبادتي : سيدخلون جهنم داخرين » . ويقول الغزالي إن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام (أو في أكثر الأوقات) مع حضور القلب ، وهو المقدم على سائر العبادات ، بل به تشرف وهو غاية ثمرتها العملية ، وأول الذكر يوجب الانس والحب وآخره يوجب الانس والحب ويصدر عنه ، وهو المطلوب . ويقول في تدرج المريدين في سلوك سبيل الرياضة^(٢) « إنه إذا قال مثلاً « الله ، الله »

(١) ويقول الغزالي إن المصوغ يتغير بالرأى القاسد المتوافق للهوى ، دون الاجتهاد

الصحيح .

(٢) عند حديثه عن شروط الآراقة ومقدمات الجماعة .

أو « سبحان الله - سبحان الله » أو ما يراه الشيخ من الكلمات ، فلا يزال
يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان ، وتكون الكلمة كأنها جارية على
اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر على
اللسان ، وتبقى صورة اللفظ في القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى تمحي عن
القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة
معه فالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه . « ويفهم من قوله تعالى » اذكر اسم
ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له . وسبحه ليلا طويلا « وجوب
إحياء الليل . ولكن قيام الليل عمير على الخلق إلا من وفق للقيام بمروضة
الميسرة له فاهرا وباطنا ، فأما الظاهرة فيراها الغزالي أربعة أمور : أن لا يكثر
الأكل (فيكثر الشرب فيغلبه النوم وينقل عليه القيام) وأن لا يتعب
نفسه بالنهار في الأنعمال التي تعيها الجوارح وتضعف بها الأعصاب .
(فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم) وأن لا يترك القيلولة بالنهار (فانها سنة
للاستعانة على قيام الليل) . وأن لا يحتجب الأوزار بالنهار فإن ذلك مما
يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . لأن الخير يدعو إلى الخير والشر
يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير . وأما التيسرات
الباطنة فيراها الغزالي أربعة أمور أيضا : سلامة القلب عن الحقد وعن
البدع وعن فضول هموم الدنيا وخوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل ،
وأن يعرف فضل قيام الليل حتى يستحكم به رجاءه وشوقه إلى ثوابه .
والحب لله وقوة الإيمان بأن في قيامه لا يشككم بحرف إلا وهو مناجاة ربه
وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه . ويقول الغزالي إن الأوراد
تختلف باختلاف الأحوال : فالعابد المتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها
أصلا . ترتيب أوراده أن يستغرق أكثر أوقاته إما في الصلاة أو في
القراءة أو في التسبيحات . أما العالم فانه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى
التصنيف والإفادة ويحتاج إلى مدة لها لا محالة ، فيجب أن يعلم هو والمتعلم
والوالى (مثل الامام والقاضي) أن الاشتغال بالعلم وحاجات السامعين

وأغراضهم على وفق التمرع وقصد الاخلاص ، أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل . أما المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله ، فليس له أن يضيق العيال ويستغرق الأوقات في العبادات ، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب . ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته ، بل يواظب على التسبيحات والأذكار وقراءة القرآن . وأما الموحّد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح همه واحداً فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء ، إلا ويرى الله تعالى فيه ، فكل ورده حضور القلب مع الله تعالى في كل حال ، فلا تتميز عنده عبادة من عبادة .

٢٣ — ويقول الغزالي إن آداب الداء هي :

(١) أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة : (كأيام رمضان ويوم الجمعة ووقت السحر) ، وأن يغتنم الأحوال الشريفة (كخلف الصلوات وفي الصيام) .

(٢) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه ، ثم يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء ، ولا يرفع بصره إلى السماء ، وأن يخفض الصوت بين الخافتة والجهر .

(٣) أن لا يتكلف السجع في الدعاء ، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال تضرع والتكاف لا يناسبه . وأن يتضرع ويخشع ويرغب ويرهب ، وأن يحزم الدعاء ويوقن بالاجابة . وأن يلج في الدعاء ويكرره ثلاثاً ، وأن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ بالسؤال .

(٤) الأدب الباطن وهو الأصل في الاجابة : التوبة ورد الظالم والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة . هذا وبحسب الاستغفار اتباعاً لقوله تعالى « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » والصلاة على النبي إذ قال تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » .

٢٤ — هل يجوز تلاوة أسماء الله الحسنى لغير العبادة ؟ هذا ويعتمد
رجال الصوفية الآن إلى أن يعلم الشيخ مريد به شيئاً من خواص أسماء الله
الحسنى ويأمره بأن يتلو الاسم الكريم كذا مرة ليحصل له الكشف
ولتخدمه الروحانية وليحصل على كذا وكذا من خبرات الدنيا أو ليدفع
عن نفسه كذا وكذا من شرورها ، ومن الأغراض التي يتلون الأسماء
الكريمة لتحقيقها رزق القيم والعلم وتيسير الرزق وتفرج الهم وقضاء
الخواص وإزالة القلب وتسخير الخلق أو الروحانية لهم ، والتوفيق للصواب
والحق والأمن من الخوف والنجاة من القتال ومن الانس والجن ومن
السفر ومن ضرر الخلق ومن الأعداء والحكام وإذلالهم لهم والطاعة
والعبادة والطهارة من الحرام والتوبة والرفعة بين الخلق والنصر وإجابة
الدعاء وتسهيل حفظ القرآن الشريف والتمتع برؤية ليلة القدر كما يتوهمها
العوام ، والاطلاع على قلوب العباد ، وعقران الذنب ، والهيبة بين الناس ،
والنجاة من الضر ، والإياب من السفر والعودة من الغياب ، والقدرة على
الصوم وتيسير العسر والحماية من الحسد وتعجيل الإجابة وعلو الدرجة في
الدنيا والآخرة ومحو الأعداء وإبعاد الشيطان ودوام السرور والحب
وتيسير البيع والشراء والبلوغ لدرجة الولاية والأمن من الخوف في الخلو
وكشف البصيرة لمشاهدة كنوز الأرض وللخلاص من الصفات الذميمة
وهلاك الظالم والعدو والمفتاب والتأمين من الأعداء وولائهم والتأمين من
يوم الفرع الأكبر ، والعثور على الضالة في الطريق ، والتوفيق في الزواج
والبركة في الرزق ونور القلب والوجه وقوة الطاعة وتسخير الخدام والنجاة
من عذاب القبر وعذاب النار والوساوس وشرح الصدر وفتح البصيرة
وتسهيل العسر وإطلاق سراح المسجون وإبطال السحر وإخصاب الأرض
والشفاء من الأمراض كمرض الطحال والبرص والجذام والعلل بجميع
أنواعها والدم مع الحمل ونجاسة الدم والبرص من الدمل ووجع البطن

والعينين والحمى الخافضة ووجع الرأس والأغراض وزوال العقم والركام
والدوخة والحمى التلوثة... الخ.

ونرى من ذلك أن الأغراض التي يغنى الصوفيون بتحقيقها من تلاوتهم
إما أن تكون مادية أو معنوية أو خليطاً منهما ، والمعنوية منها إما أن
تكون دينية كالرغبة في الرفعة بين الناس أو دينية كغالب الفقهاء أو علم
الدرجة في الآخرة . وعى في كل هذه الصور لا يخرج عن أن تكون دواء ،
وللدواء آدابه ومن آدابه عدم الخروج عن الأخذ بالأسباب التي أمر الله
سبحانه وتعالى بها ، فالأمراض مثلاً قد بين الله سبحانه وتعالى طريق
مداواتها إذا شاء بالجوارح إلى الأدوية من الأعشاب وغيرها التي جعل الله
تبارك وتعالى فيها خاصية الشفاء والتي ألهم سبحانه الأطباء منذ العصور
الأولى إلى هذه الخاصية . والتي كلما روت الأيام زادت علماً بها وبفسيها
وبالمفاضلة بين مختلف خواصها بمختلف التجارب ، وكذلك قدر الله أنه
لا نصير على الأعداء ما لم تستعد لهم ولا نجاح في امتحان ما لم تذاكر ولا سعة
في الرزق ما لم تعمل وتكد وتكدح ولا وصول إلى الله ما لم تأتمر بأوامره
وتجتنب نواهيه . وهكذا باقى الأغراض التي ذكرنا أمثلة لها . ولذا أرى
أنه يتنافى مع الأدب مع خالق الأسباب والمسببات ، أن يخرج على
القوانين التي وضعها خلقه ، وإلى أن تتلو من أسمائه الكريمة بعدد حدده
الشيخ من عنده لم يأت به كتاب ولا سنة ولا رأى لصوفي كبير كالغزالي
مثلاً لغرض غير التلاوة مجردة عن أى غرض آخر ، لأن تلاوة أسماء الله
الحسنى يجب أن تكون لقصد العبادة واللذة والناجاة ، لا لغرض آخر قد
يتحقق وقد لا يريد الله له الوقوع ، إما لعدم إحسان التوجه أو لعدم
الأخذ بالأسباب التي أمر الله سبحانه بها .

الفصل الرابع

حب الله تعالى

٢٥ - أسباب الحب : لا تتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ،
إذا لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، وكل ما في إدراكه من المدركات لذة وراحة
فيه محبوب عند المدرك ، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه ، فإن
تأكد ذلك الليل وقوى سمي عشقاً . فالحب إذن ينقسم بحسب انقسام
المدركات والحواس ، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد
منها لذة في بعض المدركات . وللطبع بسبب الذات ميل إليها ، فلهذا العين
في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور اللبقة الحسنة المستلذة ، ولذة
الأذن في النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم في الروائح الطيبة ، ولذة
الذوق في الطعوم ، ولذة اللمس في الثين والنعومة . ويقول الغزالي بوجود
حس سادس (به تدرك أعمال الصور الباطنة من خلال الخمر) ويعبر عن
هذا الحس إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو البصيرة الباطنة ، و « البصيرة
الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكاً من العين ، وجمال المعاني
المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة
لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها
الحواس . أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ،
ولا معنى للحب إلا الليل لما في إدراكه لذة : فلا ينكر إذا حب الله تعالى
إلا من فقد به القصور في درجة البهائم فلا يجاوز إدراك الحواس أصلاً .
ولكن بين الغزالي تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى بين لنا أسباب
المحبة عموماً ثم ذكر أدلة وجودها بل قوة هذه الأدلة في الله ، فيقول إن
المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه

ميلاً إلى دوام وجوده وتفرقة عن عدمه وهلاكه ^(١) وكما أن دوام الوجود محبوب ، فكمال الوجود أيضاً محبوب ^(٢) فإذا المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه ؛ والإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حفظه في دوام الوجود وكماله بها .

ومن عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله تعالى وإلى الله وبالله ؛ « فإذا كان حب الإنسان نفسه ضرورياً بحبه لمن به قوامه أولاً ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه ، أيضاً ضروري ؛ ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشبهواته وذهل عن ربه وخالفه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته » .

وثاني أسباب الحب هو الإحسان ؛ فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ؛ وهذا إذا حقق يرجع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحفظ التي بها يتم الوجود ؛ إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له (كالطبيب الذي يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء ، والأستاذ الذي يكون سبب العلم) ؛ ولذا لا يحب لذاته تحقيقاً بل لإحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً ، ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد . . زاد . ولو عرف الإنسان حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، وأن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز (فالله المحسن هو الذي اضطر المحسن إليك وسخره

(١) وهو لا يحب الموت والعدم المحض إلا لحاجة أم في الحياة ، ومهما كان معنى البلاء .
محبوبه روح البلاء .

(٢) لأن النقص فاقه الكمال ، والعس عدم بالإضافة إلى الخير المفقود هو علة بالنسبة إليه .

وسلط عليه الدواعي الباعثة الموهبة إلى الفعل ، إما لغرض آجل وهو الثواب أو عاجل وهو المنة والاستمخار أو الثناء والصيت ، ثم إن الله أنعم على العالمين إحساناً إليهم ولا جليلهم ، لا لحظ وغرض يرجع إليه ، فإنه يتعالى عن الأغراض (« فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الاحسان من غيره محال : فهو المستحق لهذه المحبة وحده » . ثم إن الله هو المحسن إلى السكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق بإيجادهم وتكليمهم وترقيتهم وتنعيمهم . فالحب لهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض .

وثالث أسباب الحب أن يحب الشيء ، لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه : وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه (وذلك كحب الجمال ، فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن ادراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ، وقضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية . وكذلك استلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطياف اللطيفة الألوان الحسنة النقش للتناسبة الشكل) . فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله جميل يحب الجمال » . والحسن الأغلب حسن الأبصار وأكثر التفات الناس إلى صور الأشخاص (من تناسب المخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القائمة إلى غير ذلك) وهذا خطأ ظاهر « فان الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ، وإن كل شيء ، جماله وحسنه أن يحضر كله اللائق به الممكن له » .

ومن أمثلة جمال الصور الباطنة جمال العلم والقدرة والسكال : والله هو أجل المعلومات ، فأحسن العلوم وأشرفها معرفته ، وكل ما يقاربه

ويختص به فشرقه على قدر تعلقه به . فان كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً
وكان هو في نفسه زينة وكاملاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب
إلا الله تعالى . إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .
وكذلك القدرة إذ غاية الإنسان أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض
أشخاص الناس في بعض الأمور . وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً
ولا حياة ولا نشوراً ولا ضرراً ولا نفعاً . فضلاً عما لا تتعلق به قدرته
من ملكوت السموات والأرض . فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو
قادر عليه من نفسه فليست قدرته من نفسه وينفسه بل الله خالقه وخالق
قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . فيستحيل أن يحب عبداً من
عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب
الله تعالى لذلك . ولا يتصور كمال التقديس والتميز إلا للواحد الحق . وأن
كل مخلوق فلا يتصور عن نقص وعن تقائص . بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخراً
هو عين العيب والنقص . فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر
ما أعطاه الله . فهو المنفرد بالكمال للتميز عن النقص المقدس عن العيوب
فيما الموصوف إن كان كاملاً وكاملاً محبوباً فلا تتم حقيقته إلا له . وكمال غيره
وتزده لا يكون مطلقاً بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصاً (كمالاً لئسان
بالاضافة إلى الحيوان) . فالجمل المطلق هو الله . فإذا ليس حب الإنسان
مقصوراً على من أحسن إليه . بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي
قط إحسانه إلى المحب . لأن كل جمال حسن فهو محبوب . ومن كانت
البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة . كان حبه للمعاني الباطنة
أكثر من حبه للمعاني الظاهرة .

وخامس أسباب الحب (إذ رابعها هو لذة جمال المعاني والصور)
هو التناسية الخفية (تناسب الأرواح) بين المحب والمحبوب . والتعارف
والتناسب أيضاً يقتضي حب الله تعالى لتناسية باطنية لا ترجع إلى الشابهة
في الصور والأشكال بل إلى معاني باطنية . هي قرب العبد من ربه عز وجل

في الصفات التي أمر فيها بالافتداء، والتخلق بأخلاق الربوبية، وذلك في اكتساب محامد الصفات : على أن الروح أمر رباني « قل الروح من أمر ربي » ، « فاذا سويته وتفتخت فيه من روحي » وقد خلق الله سبحانه آدم على صورته كما رمز النبي صلى الله عليه وسلم (حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشيروا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا) ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها .

٢٦ — المستحق للمحبة هو الله وحده : ويقول الغزالي إنه لو اجتمعت أسباب الحب في شخص واحد لضعف الحب لا محالة . وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه ، لأنها مجتمعة في حقه تعالى بحملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، ووجودها في حق غيره وهم وتخييل ومجاز محض لا حقيقة له .

٢٧ — لذة معرفة الله : ويقول إن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع للجملة من القوى والغرائز . ولكل قوة وغريزة لذتها في نيلها لمقتضى طبيعتها الذي خلقت له . ويقول إن كذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي أو نور الإيمان واليقين ، يدرك القلب به اللعاني التي ليست متخيالة ولا محسوسة (مقتضى طبيعتها المعرفة والعلم وهي لذتها) وتختلف باختلاف نوع العلم وشرفه ، وشرفه بقدر شرف العلوم) . ويخرج الغزالي من ذلك بأن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، فإن اللذات مختلفة بالموع (كمخالفة لذة الواقع للذة السماع) وبالضعف والقوة (كمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل للقائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال) وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها . وأن اللذات إما ظاهرة (كذلة الحواس) وإما باطنة (كذلة

السكرامة والعلم) : والمعاني الباطنة أغلب على ذوى السكال من اللذات
الظاهرة . فلذة معرفة الله تعالى ألد من الرياسة التي هي أعلى اللذات الباطنة
الغالية على الخلق .

٢٨ - ويقول الغزالي إن الدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال
(كالصور التخيلية) وإلى ما لا يدخل في الخيال (كذات الله تعالى وكل
ما ليس بجسم : كالإرادة) . ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته
حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها . ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة
بينهما . ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية
تكون موافقة للتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ،
فإن صورة الرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً : ومعرفة وإدراك
المعلومات التي لا تتشكل في الخيال درجتان إحداها أولى والثانية استكمال
لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين
التخيل والرئي . فيسمى الثاني أيضاً بالاضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء
ورؤية فلا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية . وما لم ترتفع كان الإدراك
الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت
محصورة بموارض البدن ومقتضى الشهوات وما غاب عليها من الصفات
البشرية ، فإنها لا تنتهي إلى الشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن
الخيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت
بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالسكينة وإن كانت
متفاوتة . فنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ وهؤلاء هم المحجوبون عن
ربهم أيد الأباد . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول
التركية والتصقل فيعرض على النار عرضاً يقمع منه الخبث الذي هو
متدنس به ، فإذا أكل الله تطهيرها وتركيتها . يتجلى له الحق سبحانه وتعالى
تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى علمه كأنكشاف تجلي الرأة بالإضافة
إلى ما تخيله ، وهذه الشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية (من غير تخيل

وتصور وتقدير شكل وصورة) : ولا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا (والتجلى على درجات متفاوتة كالمعرفة) . فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المَشوق رؤية صورته . فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى . وحب الله تعالى بقدر معرفته . فأصل السعادات هي المعرفة « والذين آمنوا أشد حبا لله » .

٢٩ — وأصل حب الله لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة : ولكن يرى الغزالي أن العبد يكتب حب الله تعالى في الدنيا واستيلاءه حتى ينتهي إلى العشق بسببين : قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب « وما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه » : وأن الواصلين للمعرفة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره : وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل .

وأظهر الوجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول : يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة : بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا وحركاتنا وسكناتنا . ويرى الغزالي أننا نرى الأمر غير ظاهر لا ابهار العقول ودهشتها عن إدراكه : لأن ما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان : خفاؤه في نفسه وغموضه وتناعى وضوحه . إذ عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في غاية الاشراف والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول . فصار ظهوره سبب خفاؤه : ومن قويت بصيرته لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره : فيعلم أن ليس في الوجود إلا الله : وأفعاله أثر من آثار قدرته : فهي تابعة له . فلا وجود لها بالحقيقة دونه . وإنما الوجود

للوحد الحق الذي به وجود الأفعال كاباء ، ومن هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى الفاعل ويذهل عن الفعل ، فكل العالم تصنيف الله ، فمن نظر إليه وعرفه وأحبه من حيث أنه فعل الله ، لم يكن ناظراً إلا في الله ولا عارفاً إلا بالله ولا محباً إلا له ، وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله .

٣ - معنى الشوق إلى الله : وكل محبوب يشتاق إليه في غيبته لا محالة . فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه : فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر : والوجود لا يطلب ، والسكن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء ، أدرك من وجه ولم يدرك من وجه (وأما ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه : فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه . لا يتصور أن يشتاق إليه) وما أدرك بكامله لا يشتاق إليه . وكمال الإدراك بالرؤية ، فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق . ويقول الغزالي : إن الوجدان جميعاً (استكمال الوضوح ونهاية المعرفة) متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإنما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فسكانه من وراء ستر رقيق ، ويكون مشوياً بشوائب التخيلات وينضاف إليها شواغل الدنيا ، وكمال الوضوح بالمشاهدة ونظام إشراف التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق (وذلك ينتهي في الدار الآخرة باللقاء والمشاهدة) ثم إن الأمور الإلهية لانهاية لها فتبقى أمور لانهاية لها غامضة . فيتشوق العارف إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة (وهذا الشوق لانهاية له في الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ، ما هو معلوم لله تعالى ، وهو محال لأن ذلك لانهاية له) .

٣١ — معنى محبة الله للعبد : وقال الله تعالى « يحبهم ويحبونه » ، وقد اشترط للمحبة غفران الذنب فقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ، ويقول الغزالي إن الوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع فكان استعمال لفظ الحب في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل : والمحبة في وضع الإنسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فإن ما يوافقها تستفيد بنبيله كالأفضل منه بنبيله وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، فهو إذاً لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلب العبد حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإني لإرادته ذلك به في الأزل ، وقرب كل واحد من الله بقدر كماله ، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا لحد محدود ، ثم درجات القرب تتفاوت متفاوتا لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

٣٢ — علامات محبة العبد لله : ويقول الغزالي إن ثمار المحبة تظهر في القلب واللسان والجوارح ، وهي كثيرة ، منها : حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام ، وأن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه ، وأن لا يكون له تنعم بغيره ، وأن يحب اتباع الطوى (والمعصية لا تخرجه عن الحب ولكن تخرجه عن كماله) ، وأن لا يفتر لسانه عن ذكر الله ولا يخلو عنه قلبه ، وذكر ما يتعلق به من كلام ورسول وما ينسب إليه ، وحب جميع الخلق لأنهم خلقه ، وأن يكون أنفسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، وأن لا يطمئ إلا بالله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، وأن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر

رجوعه عند الغفلات بالتوبة ، وأن يستقبل كل شيء بالرضى وبذكر قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » : وأن يتنعم بالفاضة (ولا يستنقليا) ويسقط عنه تعهما : وأن يكتم الحب ويحتجب الدعوى ويتوقى من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيره على مره (١) وأن يأنس بالله ويرضى بكل حكم نازل .

٣٣ — معنى الأنس بالله : ويقول الغزالي إن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة ، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته « فإذا غلب عليه التقطع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال ، انبعث القلب إلى الطلب والزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة في الانزاج شوقا وهو بالاضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظ فيسمى أنسا ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المساواة وخطر إمكان الزوال والبعد ، تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا » . ويقول الغزالي إن علامة الأنس الخاصة . ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم فإن خالط فيو كمنفرد في جماعة وحاضر في سفر وغائب في حضور ، خالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر .

٣٤ — الرضى بقضاء الله : وقد قال تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، ويقول الغزالي إن الرضى ثمرة من ثمار المحبة ، والحب يورث الرضى بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجبتين :

(١) لما يقول مراد أنه يتم التمتع بتدوين طويته عريضة في تعلق مع الله تعالى والوصول إلى من الأحسن الظاهرة (كدعوى الاتحاد) والكلمات ذات الفوائد الرائحة الغير منهومة لئلا يلبس بل صادرة عن حبه وقوله ونشوق في حبه ، أو منهومة له وليس له غير قادر على تفهيمها .

(١) أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه اللؤلؤ ولا يحس ، فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه فد يصيبه ما كان يتألم به أو يفتن به لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلا الحب على قلبه ، هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه ، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف ، تصور في الألم العظيم بالحب العظيم ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال .

(٢) أن يحس ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه يريد أنه بعقله وإن كان كارهاً بطبعه (فمن يسافر في طلب الرجب يرضى بعسقة السفر) . ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حفظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا معنى آخر وراءه . فما ظنك بقلب وفعت بين جمال الله وجلاله ؟

٣٥ — ويقول الغزالي إن الله ، غير مناقض للرضى ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضى . وكذلك كراهة للعاصي ومقت أهلياً ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضاً ، لأن الله تعيدنا بهما . وقد التبس هذا على قوم حتى رأوا السكوت على المنكرات مقاما من مقامات الرضى وسموه حسن الخلق ، وهو جبل محض ، بل الرضى والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه . فكذلك العصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث أنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ورضى بما يفعله فيه . ووجه إلى العبد من حيث أنه كسبه ووصفه وعلامة كونه محموتا عند الله وبقيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعثة والقتل ، فهو من هذا الوجه منكرو ومذموم . ويقول الغزالي إن هذا كله مستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه ، وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى ، فن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير

افتراق في الرضى والكراهة ، فهو أيضا مقصر . وبهذا يعرف أيضا أن الدماء
بالمغفرة وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضى بقضاء الله تعالى ،
فإن الله تعبد العباد بالدماء ليستخرج الدماء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب
ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف . ويقول الغزالي
إن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذممتها ، لا يقدح في الرضى إذ أنه
ليس فرارا من القضاء ، بل القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه . فمن الأفضل
رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمته ، ورجل
قال لا أختار شيئا بل أَرْضَى بما اختاره الله . . . صاحب الرضى أفضلهم
لأنه أقلهم فضولا !

الفصل الخامس

مراقبة الله

٣٦ — المحاسبة والمراقبة : قال تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا » ، وإن كان منقال حبة من خردل أتيننا بها ، وكفى بنا حاسيين » ، وقال « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ويقول الغزالي إن مطلب العقل ورجحه تزكية النفس « قد أفلح من زكاهها » وقد ظاب من دساها « ، وهو يحتاج إلى مشارطتها أولا فبرشدها إلى طرق الفلاح ويحزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها . والمحاسبة تكون تارة بعد العمل وتارة قبله التحذير ، ومعناه وزن الأمور أولا وتقديرها والنظر فيها بتدبر ثم الاقدام عليها فيها شرتها ، ولا يبقى بعد ذلك إلا المراقبة للنفس عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين المكاثرة فإنها إن تركت طغت وفسدت « إن الله كان عليكم رقيبا » .

٣٧ — ويقول الغزالي إن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ، ويعني بهذه المراقبة حالة لاقلب يشمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب . أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والنفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت . والوفتون بهذه المعرفة هم القربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين . مراقبة الصديقين هي مراقبة التعظيم والإجلال وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى غير أصلا ، وهذه

مراقبة مقصورة على القلب ، أما الجوارح فإنها تعطل عن الالتفات إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذي صار همه هما واحداً ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه . أما الورعون فيهم قوم غلب يقين اطلاع الله على قلوبهم ، ولما لم ندهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتفات إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة ، وقد غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، فإنهم يرون الله في الدنيا مطالعاً عليهم (على ظاهرهم وباطنهم) فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة ، ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته وحفظاته وبالجملة جميع اختياراته (بأن يسأل نفسه لم ؟ وكيف ؟ ولمن ؟) عند همه بالفعل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو هوى نفس فيتقيه ويحجز القلب عن التفكير فيه وعن الهم به (١) .

ويقول الغزالي إن العبد لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح ، فراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ، وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ، وإن كان في مباح فراقبته بمراعاة الأدب ثم إشهود للنعم في النعمة وبالشكر عليها والصبر على البلية .

٣٨ - ويقول الغزالي إن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوضية بالحق ، فيبغى أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسنها على جميع حركاتها وسكناتها ، فيحاسنها على

(١) فإن الخطوة الأولى في السائل إذا لم تنفع أوردت الرغبة . فهم . الحزم . قصد .
الفعل . فالجواب والفتا

الفرائض أولا . فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها
وان فوتها من أصلها طالبا بالقضاء . وان أداها ناقصة كغيبها الجبران
بالتوافل . وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومما يتبها ليستوفي منها
ما يتدارك به ما فوط . وينبغي أن يتقى غيبة النفس ومكرها فليطالها
أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول النهار . وهكذا عن نظره
بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن
سكوته لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ . فإذا عرف مجموع الواجب
على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه . كان ذلك القدر محسوبا له
فيظفر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه . فإذا حصل
ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغي أن يحاسب النفس على
جميع العمر يوما فيوما وساعة فساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة .
فيكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الانقاس وعلى معصيته بالقلب
والجوارح في كل ساعة .

ويقول الغزالي إنه مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية
وارتكاب تقصير في حق الله تعالى . فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها
عسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها . بل ينبغي أن يعاقب كل طرف
من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته .

٣٩ - النية : ويقول إن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة
على معنى واحد وهو حالة وصفة لا قلب يكتسبها أمران علم وعمل . العلم
يقدمه لأنه أصله وشرطه . والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه . وذلك لأن
كل عمل لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان
مالا يعلمه . فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد . فإذا جازمت المعرفة بأن
الشيء موافق ولا بد أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه
انبعثت الإرادة وتحقق الميل (فحسب الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا
للفرض إما في الحال أو في المسأل) وإذا انبعثت الإرادة . انهمضت القدرة

لتحرريك الأعضاء ، والنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، فالحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المتوهم ، والانبعاث هو قصد والنية ، واتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحرريك الاعضاء هو العمل ، إلا أن اتهاض القدرة للعمل قد يكون بباطة واحد (خالص عن مشاركة غيره) وقد يكون بباطتين اجتماعاً في فعل واحد ، وإذا كان بباطتين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملماً بباطة القدرة (وهذا مرافقة للبواث) وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع (وهذا مشاركة في الباعث) وقد يكون أحدهما كافياً لو لا الآخر ، لكن الآخر اتهاض عاضداً له ومعاوناً (وهذا معاونة للباعث) . فالعمل تابع لباطة عليه فيكتسب الحكم منه ، ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لها في حكمها وإنما الحكم بالتنوع .

٤ - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله » ، ويقول الغزالي إن معناه إن نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته . والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل ، فيما عملان والنية من الجملة خيرهما (لأن أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، والنية ميل القلب إلى الخير وإرادته له ، وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل ليخرج من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والتفكير ، فبالضرورة يكون خيراً بالاضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس القصد)

ويقول الغزالي إن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك ، فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات :

(١) المعاصي : وهي لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية (كمن يبنى مسجداً بمال حرام) إذ النية لا تؤثر

في إخراجها عن كونه ظالما وعدوانا ومعصية ، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو حاسر بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ؟ لهيات ولكن للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضافت إليها قصود خبيثة ، تضاعف وزرها وعظم وبالها .

(٢) الطاعات : وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضائها : أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير (فإن نوى الرياء صارت معصية) ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها .

(٣) المباحات : وما من شيء من المباحات إلا وبمحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات ، فالتطيب مثلا مباح ولكن هل يقصد به التمتع بالذات الدنيا (فلا يعصى به) ولكن يسأل عنه (أو يقصد به رياء الخلق فيذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلا للنظر إليهن) وكل هذا يجعل التطيب معصية) : أما إذا كان ينوى به اتباع السنة يوم الجمعة وتعظيم المسجد فلا يدخله إلا طيب الرائحة ويقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا بروائحهم ومعالجة دماغه لتزيد به فطنته (فهذا نيات حسنة) .

٤١ — ويقول القزالي : « إن النية ليست حديث نفس أو حديث لسان أو فكر أو انتقالا من خاطر إلى خاطر ، بل هي انبعاث النفس وتوجيها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا ، والليل إذا لم يكن ، لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، إذ لا طريق إلى اكتساب صرف القاب إلى الشيء ، وميله إليه وتوجيه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبعت النفس إلى الفعل إجابة للغرض

الباعث الموافق للنفس الملائم لها . وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط
بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصد ذلك مما لا يقدر على اعتقاده
في كل حين وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه
بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف
هنا أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال
وبالأعمال . والنية تدفع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وهي روح العمل ،
والعمل بغير نية صادقة رياء وتكاف وهو سبب مقت لاسبب قرب ، وهي
ليست قول القائل بلسانه نويت . بل هو اتباعات القلب .

ونيات الناس في الطاعات أقسام . إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث
الخوف (اتقاء النار) ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء (الرغبة في الجنة) .
وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباً لجلاله
وجلاله . وثواب الناس بقدر نياتهم . ومن حضرت له نية في مباح ولم تحضر
في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة
لأن الأعمال بالنيات (وذلك مثل العفو عنه أفضل من الانتصار في الظلم ،
وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل) .

٤٢ — شوب الرياء : ويقول الغزالي إن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره
فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً ويسمى الفعل الصفي المخلص
إخلاصاً . والإخلاص بضاد الاشتراك فمن ليس مخلصاً فهو مشرك : « وما
أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » . والإخلاص وضده يتواردان
على القلب ، فتحله القلب ، وإنما يكون ذلك في القصد والنيات ، وهما كان
الباعث واحداً على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى
النوى . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب
إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، فمن ابتعث لقصد التقرب ولكن امتزج
بهذا الباعث بأثر إيمان الرياء أو من غيره من حفظ النفس ، فقد

خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى
سوتطرق إليه الشرك (الخطي).

والباعث النفس^(١) إما أن يكون مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف
والإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها وكثيرها حتى يتجرد
فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه . وهذا لا يتصور إلا من يحب
الله مستغرق الهمة بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب
الأكلي والشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من
حيث أنه ضرورة الحياة . فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه
على عبادة الله تعالى .

واظهر مشوشات الإخلاص الرياء . والعمل إن لم يكن خالصاً لوجه الله
تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس ، كان مشوباً (ويدل
ظاهر الأخبار على أنه لا ثواب له) فإذا كان لم يرد به إلا الرياء فهو عليه
قطعا وهو سبب العقاب والعقاب : أما الخالص لوجه الله تعالى فهو
سبب الثواب .

ويرى الغزالي أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الديني
مساوياً للباعث النفسي تقاوماً وتساقطاً وصار العمل لاله ولا عليه ، وإن
كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفرض
للعقاب الأقل من عقاب العمل الذي تجرد للرياء . ولم تخرج به شائبة التقرب
وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر
ما فضل من قوة الباعث الديني . فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير^(٢) بل إن
كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة . وإن
كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد .

(١) حظوظ دنيوية وسهوات تنفر إليها النفس وتميل إليها القلب .

(٢) ويقول العراقي : كلاً يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا يفت
من أثر في الجسد بوجه سنة الله تعالى . فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا يفت
عن تأثيره في إثارة القلب أو السويدة وفي هزبه من الله أو إبعاده .

ويقول الغزالي تفسيراً لهذا « إن الأعمال تأثرها في القلوب بتأكيدها
صدقاتها ، فداعية الرياء من الميلكات ، وإنما غذاء هذا الميلك وفوته العمل على
وفقه ، وداعية الخير من النجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها فإذا اجتمعت
الصفتان في القلب فيما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك
الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضاً تلك
الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج . فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر
فقد تقاربا » وفي الحديث « اتبع السيئة الحسنة تمحيا » فإذا كان الرياء
المحض يتجود الإخلاص المحض عقيبها ، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بد وأن يتدافعا
بالضرورة . ومع هذا فيقول الغزالي إنه لا ينبغي أن يترك العمل عند
خوف الآفة والرياء ، إذ المقصود أن لا يغترب الإخلاص ، ومهما ترك العمل
فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً .

٤٣ — الإخلاص والصدق : وقال الله تعالى « رجال صدقوا ما عاهدوا

الله عليه » ويقول الغزالي إن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان :

(١) صدق في القول : وهذا هو صدق اللسان ولا يكون إلا في
الأخبار أو فيما يتضمن الأخبار وينبه عليه : والخبر إما أن يتعلق بالماضي
أو بالمستقبل . وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . فمن حفظ لسانه عن
الأخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق . ولما كان هذا
الصدق كاللأن . أحدهما : الاحتراز عن المعارض لأنها تقوم مقام الكذب
إذ المحذور من الكذب تفهم النية على خلاف ما هو عليه في نفسه ؛ إلا
أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال كحفظ دمه
وماله وعرضه ودم أخيه وسره وودده وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن
يجري مجراه وفي الصلح بين اثنين وفي الحذر عن الظلمة وفي مصالح الحرب
في قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك : فمن اضطر إلى
شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما أمره الحق ويقتضيه

الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه متفيماً غير مأهول عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه . والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فهما صح قصده وصدقت نيته ونجرت للخير إرادته صار صادقاً وصديقاً كنهما كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولى . والسكال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله « وجبت وجهي للذي فطر السموات والأرض » فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كاذب ، وكقوله « إياك نعبد » .

(٢) صدق في النية والإرادة : ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باع في الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حفظ النفس ، بطل صدق النية ، وصاحبه يزور أن يسمى كاذباً (٣) صدق العزم : فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل (فيقول مثلاً في نفسه إن رزقني الله مالا تصدقت بجميعه أو بشعاره) ، فيذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة . فالصادق هنا هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم انصم الجازم على الخيرات .

(٤) صدق في الوفاء بالعزم : ومراتب الصديقين في العزائم تختلف . فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمسك وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتحقق الوفاء بالعزم . وهذا يضاد الصدق فيه .

(٥) صدق في تحقيق العمل : وهو صدق في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك

الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر (بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره) .

(٦) صدق في تحقيق مقامات الدين كلها : وهو أعلى الدرجات وأعزها كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والحب وسائر هذه الأمور (فإن الصدق في تمام حقيقتها لا في ظيورها فحسب ، وقد يكون للمعبود صدق في بعض الأمور دون بعض ، والصدق من كان صادقا في الجميع مع اختلاف في الدرجات) .

٤٤ - مراقبة الله في الدنيا : ويقول الغزالي في ذم الدنيا إن كل ما ليس لله فهو من الدنيا (صورة ومعنى) وما هو لله فذلك ليس من الدنيا ، والأشياء ثلاثة أقسام :

(١) المعاصي والمحظورات وأنواع التمتع في المباحات : وهي الدنيا المحضة المذمومة (ولا يتصور أن يكون ذلك لله) .

(٢) ما صورته الله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو التفكير والذكر والكف عن الشهوات : فإذا جرى ترك الشهوة مثلاً سرّاً ولم يكن عليه باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهو لله ، وإن كان الغرض منه حفظ المال أو الحية لصحة البدن أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى) .

(٣) ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالأكل والشكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فإن كان القصد حفظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه . فإذا الدنيا حفظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ، ويعبر عنه بالهوى ، ويقول الغزالي : إن الخير أن لا يترك الإنسان الدنيا بالكيفية ولا يجمع الشهوات بالكيفية ، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات فيجمع منها ما يخرج عن مناعة الشرع والعقل ولا يجمع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شيء من الدنيا

ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده .

٤٥ — وقال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تملك أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله : ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » ، ويقول الغزالي إن المال مثل حية فيها سم وترياق . ففوائده ترياقه وغوائله سمومه ، وأما فوائده الدينية فينبى أن يتفقه على نفسه إما في عبادة (كالاستعانة على الجهاد) أو في الاستعانة على عبادة (كالمطعم) . وما يصرفه إلى الناس من صدقة ومروءة ووقاية عرض وأجرة استخدام ، وما لا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام (كبناء المساجد ودور الرضى) ، سوى ما يتعلق بالحفظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد بين الخلق وكثرة الإخوان والأعوان والكرامة في القلوب . وأما آفات المال فدينية ودنيوية : أما الدينية :

(١) فإن يحجر إلى المعاصي وارتكاب الفجور (فإن السموات متفاضلة ، والمعجز قد يحول بين الرء والمعصية) ومن العصاة أن لا يجد .
(٢) أنه يحجر إلى التمتع في الباطحات ، وأحسن أحواله أن يقتنع بالدنيا ويعرن عليها نفسه فيصير التمتع مألوفا عنده ومحبوباً لا يصبر عنه ويحجر البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به وبما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشهوات ويخوض في الرأاة والداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه .

(٣) يليه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، فإن أصل العبادات وسرها ذكر الله والتفكير في جلالة وذلك يستدعي قلباً فارغاً (وصاحب الضيعة مثلاً يمشي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته) . فإن كان الإنسان فقيراً فينبغي أن يكون قائماً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقتنع بقدر الضرورة من

الطعم واللبس والسكن ، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ، فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وجرد التدنس بذل الحرص والطمع إلى ارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات . ويقول الغزالي إن علاج هذا العمل بالاعتصام في العيشة والرفق في الإتفاق ، وإذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقيق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه ، وأن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء ، وما في الحرص والطمع من إذل ، وأن يحير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بالأنبياء أعز أصناف الخلق عند الله ، وإن كان المال موجوداً ، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل .

٤٦ — حقيقة الفقر: ويقول الغزالي إن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً . وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً ، وكل موجود سوى الله تعالى فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ، فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه لئلا يند وجودهم بالدوام « والله الغني وأنتم الفقراء » ، وفقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا تحصر لها . ومن جهة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وكل فاقده للمال فإنما نسبه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك الفقد محتاجاً إليه في حقه ، ثم يتصور أن تكون له ستة أحوال :

- (١) أن يستوى عنده وجود المال وفقده (ويسمى استغناء) .
- (٢) أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مفضلاً له وبحراً من شره وشغله (ويسمى زهداً) .
- (٣) أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لمصلوه ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، ويؤذيه لو أتاه (ويسمى رضى) .

(٤) أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه (ويسمى قناعة) .

(٥) أن يكون تركه الطلب لعجزه (ويسمى حرصاً) .

(٦) أن يكون والعياذ بالله ما فقد من المال مضطراً إليه (ويسمى اضطراراً) والغزالي يريد من ذكر تلك الحالات أن يجهد لقوله إن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية السكال ، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص وقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى : بل السكال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء (وأنت محتاج إلى كل منهما) ، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة ، فكذا ينبغي أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم ، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حياً ، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء .

ويقول الغزالي إن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص للمسلم وإن الغنى المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص . ويقول إن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة (لما كل أو ملبس أو مسكن) فإن كان عنها بد فهو حرام . لأنه إظهار للشكوى من الله تعالى ، وفيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى ، وإنه لا ينفعك عن إيداء السئول غالباً لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه (وحده إباحة السؤال أن تعلم أن السئول بصفة لو علم ما يترك من الحاجة لا بتدأك دون السؤال بأن تكون مشرفاً على الهلاك ولم يبق لك سبيل إلى الخلاص ولم تجد من يعطيك من غير كراهة وأذى — فأما في نحوئك بالحياء وإنارة داعيته بالحيل ، فلا) .

٤٧ — حقيقة الصبر : ويقول الغزالي إن الصبر عبارة عن ثبات باعث

الدين في مقابلة باعث الشهوة (والهوى والكسل) : فإن ثبت حتى قبره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين . ويقول : إن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين :

(١) العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والوفاة على الطاعة إلا بالصبر .

(٢) أن يطلق على الأحوال للثمرة للأعمال لا على العارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة (فيشكر) أو يضره فيهما (فيصبر) والصبر ضربان ضرب بدني (كتحمل المشاق بالبدن) وهو إما بالفعل (كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها) وإما بالاحتمال (كالصبر على الرض العظيم والجراحات الهائلة) وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو صبر النفس عن مشتريات الطبع ومقتضيات الهوى (ويسمى عفة وضبطاً للنفس ، وشجاعة ، وحلماً ، وسعة صدر ، وكتماً) للسر وزهداً ، وقناعة — بحسب نوع الصبور عليه) .

وينقسم الغزالي الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف تبعاً لأحوال باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى ، إلى ثلاثة :

(١) صبر الصديقين المقربين : وهو أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر .

(٢) صبر الخافلين : أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكيفية المنازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد لبأسه من المجاهدة .

(٣) صبر المجاهدين : وهو أن تكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهو إما أن يغلب جميع الشهوات أولاً يغلب شيئاً منها أو يغلب بعضها دون بعض .

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جيد وتعب شديد ويسمى ذلك قصيراً ،

وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخلص ذلك باسم الصبر ، وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر وأورث ذلك مقام الرضى .

وينقسم الصبر باعتبار حكمه إلى فرض (بالصبر عن المحظورات) وتفل (بالصبر عن المكاره) ومحرم (بالصبر على الأذى المحظور) ومكروه (بالصبر على أدى يناله بحجة مكروهة في الشرع) .

ويقول الغزالي إن جميع ما يلي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين ما يوافق هواه (وهو الصحة والمال والجاه وكثرة الاتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا) وما لا يوافق (وهو ما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصي وما لا يرتبط باختياره كالمصائب ، أولا يرتبط باختياره ولا يكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذى بانتقام) وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما . ومعنى الصبر على العاقبة أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعلى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع واللذة واللغو واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإتقان ، وفي بدنه ببذل العونة للخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه ، وهذا الصبر متصل بالشكر .

٤٨ — شكر الله : والشكر نصف الإيمان ، ويقول الغزالي إن الشكر لله لا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم ، والوسائط مسخرون من جيبته (وأنه الشاكر والمشكور إذ الكل مصدره إليه وإليه مرجعه ، وليس في الوجود غيره إذ الوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقى موجوداً : فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو يقوم ولا يقوم إلا واحد) : أي أنك لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن خالفك ريب في هذا لم تكن طارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فينقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وينقصان فرحك ينقص عملك ، ثم إن

الحال المستعدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع : هو أيضاً في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ، ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام (فيبعد عن معنى الشكر إذا كان النظر مقصوراً على الفرح بالنعمة من حيث أنها لذيذة وموافقة لغرضه ، ويدخل في معنى الشكر الفرح بالمنعم لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الإنعام في المستقبل) . ويقول الغزالي إن العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم يتعلق بالقلوب (بقصد الخير وإضماره لكافة الخلق) وبالألسان (بإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه) وبالجوارح (باستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوفى من الاستعانة بها على معصية) .

ويقول الله تعالى « اثنوا شكرهم لأزيدنكم » ومعنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه ، ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار . الثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار بإدراك حكمة الله تعالى (الجليلة أو الخفية) في كل موجود خلقه ، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة ، فكل من استعمل شيئاً في غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله وعدل عن العدل . (فنلا الدرامم والدنانير خلقهما الله تعالى لتداولهما الأيدي ويكونا حاكبين بين الأموال بالعدل ، وعلامة معرفة القادير مقومة للراتب . والحكمة أخرى وهي التوصل بهما إلى سائر الأشياء فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود به فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما . فإذا من كفرها فقد ظلمها وأبطل الحكمة فيهما » والذين يكثرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فيبترهم بعذاب أليم » . وكل من اتخذ منهما آية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة لأن الخرف والحديد

والرصاص والنحاس تنوب مناهما في حفظ الأثبات عن أن تنبذ ،
ولا يكتفى الخنزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود ، وكل من عامل
معاملة الربا فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما إذ لا غرض
في عينهما ، (فإذا انجر في عينهما فقد أخذهما مقصوداً على خلاف
وضع الحكمة) .

ويقول الغزالي إن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه
يسمى نعمة ، وليكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية وكل سبب
يوصل إليها ويعين إليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، وتسمية ما سواها
نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على
الآخرة نعمة ، والنعم إما نافعة في الدنيا والآخرة كحسن الخلق ، أو نافعة
في الحال ضارة في الآل كالتلذذ باتباع الشهوات ، أو مؤلمة في الحال
نافعة في الآل كتقمع الشهوات ، وتنقسم الأسباب الدنيوية إلى ما نفعه
أكثر من ضرره كتقدير الكفاية من المال والجاه ، وإلى ما ضره أكثر
من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى
ما يكافئ ضرره نفعه ، وهذه أمور تختلف باختلاف الأشخاص قرب
إنسان صالح يتقنع بالمال وإن أكثر فينفعه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات
فيكون نعمة في حقه ، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضاً إذ لا يزال
مستصغراً له شاكياً من ربه طالباً لزيادة فيكون بلا ، في حقه . وتنقسم
الخيرات إلى ما يؤثر لذاته كذدة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ،
وما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته كالدرهم والدنانير لقضاء الحاجة ،
وما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة . وتنقسم الخيرات باعتبار آخر
إلى ما تدرك راحته في الحال وهو اللذيق ، وما يفيد في الآل وهو النافع
وما يستحسن في سائر الأحوال وهو الجميل ، ولهذا التقسيم ضربان مطلق
اجتمعت فيه الأوصاف الثلاثة كالعلم ، ومقيد جمع بعض هذه الأوصاف
دون بعض ، فالنافع قد يكون مؤلماً وقد يكون قبيحاً وقد يكون نافعاً
من وجه وضاراً من وجه وقد يكون ضرورياً وقد يكون غير ضروري .

وتنقسم اللذات إلى عقلية تختص بها كالعلم ، وبدنية إما مشتركة مع بعض الحيوانات كالأكل والاستيلاء والغلبة ، أو مشتركة مع جميعها كالذة البطن والفرج . وفهم الغزالي النعم تقسيماً حاوياً لهما معاً إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية التي هي سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء ، لا فناء له ، وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده ، وهي النعمة الحقيقية . وقسم الوسائل إلى الأقرب الأخص كقضاء البدن من صحة وقوة وجمال وطول عمر ، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب الطيفة بالبدن من المال والأهل ، وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس ، كتوفيق الله والرشد والتسديد والتأييد .

ويقول الغزالي إنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجبل والغفلة عن معرفة النعم ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله . ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين العرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، أما الغفلة عن النعم فلها أسباب : وأحد أسبابها أن الناس يجادلون لا يعدون ما نعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون عليها لأنها نعمة عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختلف قيم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، فإن ابتلى واحد منهم ثم نجح ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال ، وأنعمت في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها ، فصار الناس لا يشكرون إلا للمال الذي يتطرق للاختصاص إليه من حيث الكثرة والثقة وينسون جميع نعم الله تعالى ، والعلاج أن ينظر الإنسان إلى من

دونه ، وأن يعرف أن النعمة (ظاهرة أو باطنة) إذا لم تشكر زالت ولم تعد .

٤٩ — ويقول أنقرالى إنه يرجع الصبر في الدنيا إلى ماليس بلاء مطلقاً بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فذلك تصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ، والشئ الواحد قد يفتن به من وجه (فيصبر عليه) ويفرح به من وجه آخر (فيشكر عليه) ، وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها :

(١) أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها فيشكر إذ لم يكن أعظم منها في الدنيا .

(٢) أنه كان يمكن أن تكون مصيبة في دينه (بكفر أو معصية أشد ، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأظلم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح . فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم لعله قد أخبرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله على ذلك ؟) .

(٣) ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون العصية فيخفف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانياً .

(٤) أن هذه العصية والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه ، وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة .

(٥) أن ثوابها أكثر ، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين أحدهما الذي يكون به الدواء السكريه نعمة في حق المريض ويكون النعم من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي ، فكذلك المال والأهل والأعضاء حتى العين التي هي أغز الأشياء ، قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض

الأحوال : بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه ،
فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة الدينية ويشكره عليه .
والوجه الثاني أن مواتاة النعم على وفق الراد من غير امتزاج بلاء ومصيبة
تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنه بها ، وأما التألم فضروري
(والدواء النافع مؤلم) .

٥٥ — مراقبة الله في اللسان : وقد ذكر الغزالي في آفات اللسان
وجوب أن يتجنب الإنسان الغفلة عن دقائق الخطأ في مخوى الكلام لاسيما
فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين ، فمن قصر في علم أو فصاحة
لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله (مثاله ما قاله حذيفة
إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت وليقل
ما شاء الله ثم شئت ») وذلك لأن في العطف المطلق تشريفاً وتسوية وهو
على خلاف الاحترام) ، وكذلك يجب أن يتجنب العوام السؤال عن صفات
الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة (لأن شأن
العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به
الرسول من غير بحث) ، وكذلك يجب على الإنسان أن يتجنب الكلام فيما
لا يعنيه وفضول الكلام (الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر
الحاجة) والخوض في الباطل (وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال
النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق ، بل هو الخوض في ذكر محظورات
سببق وجودها أو تدبر للوصول إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها)
والتعمر في الكلام بالتمشيد المقوت والتنطع وتكلف السجع والفصاحة
والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات ، إذ مقصود الكلام التفهيم للغرض
وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة
والتذكير من غير إفراط وإشراط ، فإن القصد منها تحريك القلوب
وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، والغناء
والشعر وإنشاد الشعر ونظمه ليس بجرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره .
وكذلك يجب مراقبة الله في آفات اللسان الأخرى .

٥١ - مراقبة الله في الأكل والشرب : ونحن قوم تأكل لنعيش لا نعيش لنأكل . وإذا أكلنا لم نشبع ، فلا ينبغي أن يكون هم الإنسان الأكل والشرب بل يجب أن يجاهد نفسه بالجوع والعطش تبعاً للحديث الشريف : ويقول الغزالي إنه يجب أن لا يأكل إلا حلالاً في نفسه طيباً في حبة مكسبه « كلوا من الطيبات » موافقاً لسنة والورع . لم يكتسب بسبب مكروه في الذرع ولا بحكم هوى ومداينة في دين . وأن يتقوى بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل (ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل) وأن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم . وفي هذا فضيلة الأكل للعيش أو كما يسميها الغزالي فضيلة الجوع فهم صادق لمعنى الحياة الإنسانية الحقة ويجريدها من خسة شهوة البطن النادية المشاركة لها البهائم فيها : إذ يرى الغزالي أن في مجاهدة الجوع والعطش صفاء القلب وإيقاد القريحة وإيقاد البصيرة (لأن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ فيثقل القلب عن الجريان في الأفكار وسرعة الإدراك) . وبالجوع يرق القلب ويصفو ويذول البطر « فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع : فعنده تسكن لديها وتقف على عجزها وذاتها إذ ضعفت منتها وضافت حيلتها بلقيمة طعام فاقتها : وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنها » : وبه لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء : وبه كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء « فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى : ومادة القوى والشهوات لا محالة الأظلمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة : وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه : وأقل ما يتدفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام » : وبه يتدفع النوم ويدوم السهر (لأن من شبع شرب كثيراً ومن أكثر شربه أكثر نومه) « وفي كثرة النوم ضياع العمر

وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب ، وبه تيسر الواظبة على العبادة (لأن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وشراء الطعام وطبخه وغسل اليد والحلال وكثرة التردد إلى بيت الماء لكثرة شربه) ، ويستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض « فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الاخلاط في العدة والعروق ، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينقص العيش ويحوج إلى الدواء والغليب ، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات » ، وبالجموع وقلة الأكل تخف المؤنة « فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع صار بطنه غريباً ملازماً له وأخذاً بمخنقه في كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل ، وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس » ، وقلة الأكل يتمكن من الإيثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين فيكون في يوم القيامة في ظل صدقته .

٥٧ — ويجعل الغزالي للأكل صفة اجتماعية منظمة فيرى أن من آدابه أن يجتهد الإنسان في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده . ويدل على احترام الغزالي للأكل ورفع له عن خسة المادية ذكره أن من الآداب التي يتقدم على الأكل « غسل اليد لأن اليد لا تخلو عن ثوب في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة ، ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة » وذكره أن من آداب حالة الأكل أن يبدأ بسم الله في أوله وبحمد الله في آخره وبأكل باليمين (احتراماً له) ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها وما لم يتلعها لم يعد اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة في الأكل ، ولا ينبغي في الطعام الحار بل يصبر إلى أن يسهل أكله ، وإن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه (تنظيم له واتباعاً للقواعد الصحية) وأن يأكل مما يليه إلا الفاكية

فإن له أن يحيل يده فيها ، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ، ولا يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلتقيها ، وكل ماله عجم وثقل وما استرذله من الطعام ، وأن لا يأكل من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز (احتراماً له والسكيا يتأذى من يأكل معه) وأن لا يذم مأكولاً فإن أعجبه أكله ولا تركه ، ولا يمسح يده بالخبز (احتراماً للذمة)^(١) ويراعى الغزالي هذه المعاني في الشرب فيقول إن أدبه أن يأخذ السكوز (القدح) بيمنه ويقول بسم الله ويشربه مصاً لآعياً ، ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً ، ويراعى أسفل (القدح) حتى لا يقطر عليه وينظر فيه قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس فيه بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية . وكذلك يقول إنه يستحب بعد الطعام أن يمسك قبل الشبع ، ويتخلل ولا يتلع ما يخرج من بين أسنانه بالخلال بل يرميه ، وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فبرى الطعام مئة منه . ولا يقوم عن الفائدة حتى ترفع أولاً .

٩٣ — مراقبة الله في النكاح : ويقول الغزالي إن للنكاح فوائد وآفات على العبد أن يوازن بينهما ويرجح الأصلح له منهما ، فآفاته ثلاث : العجز عن طلب الحلال (لأن المتزوج في الأكثر يتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنيته) ، والقصور عن القيام بحق الزوجة ، وأن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى وجاذباً له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره وطلب التفاخر والتكاثر بهم وأما فوائده خمسة :

(١) الولد : وهو الأصل وله وضع النكاح ، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة^(٢) .

(١) حتى أنه يقال فيقول لا يفتح بالسكبي ولا يفتح بالحد أيضاً ، ونرى أن هذا لا يغفل من احترام الذمة ، بل يمكن القول به وضحه لاحترام الأكل ونظافته .
(٢) ويقول الغزالي فيما يتعلق بالولد وجوب أن تكون المرأة ولوداً (بأن يراعى صحتها)

(٢) التحصن عن الشيطان وكسر التوقان وخفض البصر وحفظ الفرج :
ويقول الغزالي إن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل قلبه وتقصيه
بالترويح فإن ذلك يستجره إلى الأناش بالزوجة : ومن أنس بغير الله تعالى
شغل عنه ، فتمطر الربد العزوبة في الابتداء إلى أن يقوى في العرفة ،
هذا إذا لم تغلب الشهوة فإن غلبته فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم
فإن لم تنفع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلاً وإن
قدر على حفظ الفرج فالتكاح أولى له لتسكين الشهوة وكذلك إذا لم
يحفظ عينه إذ زنا العين من كبار الصغائر وهو يؤدي على القرب إلى الكبيرة
الفاحشة وهي زنا الفرج ، وفي الحديث « لكل ابن آدم حظ من الزنا
فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان
تزنيان وزناهما المشي ، والفم يزني وزناه القبلة ، والقلب يهيم أو يتعنى ،
ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » ، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم
يقدر على حفظها عن الصبيان فالتكاح أولى به ، فإن الشرف في الصبيان أكثر
فإنه لو مال إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالتكاح ، والنظر إلى
وجه العشي بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرء
بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر إليه ، ويعرف ذلك
بميل النفس إلى القرب والملازمة ^(١) .

(٣) ترويح النفس وإيناسها بالمخالسة والنظر والملازمة وإراحة القلب
وتقوية له على العبادة : ويقول الغزالي إنه يحسن أن تكون المرأة حصة
الخلق صالحة ذات دين ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها

وسلبها) وأن تكون سبية (أي تكون من أهل بيت الدين وإصلاح فإنها ستربي بناتها
وبنها ، وأن لا تكون من القرابة القريبة فإن ذلك يغل الشهوة فيخلق الولد شارباً أي خبيثاً)
(١) ويقول الغزالي عند الكلام عن إحصاء الغلبة للعيش إلى الأبد من مراعاتها في المرأة
ليدوم النعم وشوق مقاصده : أن تكون خفيفة الظهر (ويكره السؤال عن ما لها من جهة
الرجل) وأن تكون حسنة الوجه إذ به يحصل التحصن والألف والمودة ، والنسب لا يكسر
بالدمية غالباً ، والغالب : أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان .

وفرجيا أشرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالفسيرة قلبه وتنقص بذلك عيشه (وفي الحديث « لا تنكح المرأة لجمالها ، فاعل جمالها يريد بها ، ولا لجمالها فاعل ما لها يعافها . وانكح المرأة لدينها » وهذا ليس زجراً عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين : فإن الجمال وعده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين) وأن تكون بكرآ ، وقد قال عليه السلام لجابر وقد نكح ثيبآ : هلا بكرآ تلاعبيها وتلاعبك^(١) .

(٤) تفرغ القلب عن تدبير المنزل والتكامل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني ونهية أسباب العيشة .

(٥) مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقيين واحتمال الأذى منهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلين ، والقيام بتربيته لأولاده .

٤٥ — مراقبة الله في رياضة الصبيان : ويقول الغزالي « إن الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الظاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه ، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا ، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيائمه بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه بحسن الأخلاق ويحفظه من القراء السوء ، ولا يعودده التمتع ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرضاية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيها هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول

(١) ويقول : إنه يجب على الولي أيضاً أن يراقب خصال الزوج وليتذكر نفسه فلا يزوجه إلا برضاها ولا يزوجه من ساء خلقه أو خلقه أو ضعف دينه أو خسر عن القيام بحقوقها أو كان لا يكاملها في نفسها ، وينبغي أن يزوجه كما قال الحسن من بنى الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

الأثر فلا يستعمل في حضائته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متديونة تأكل
الحلال ، ومهما رأى فيه محابيل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك
ظهور أوائل الحياء ، ثم يشغل في المكتب ، ثم مهما ظهر من الصبي خلق
جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويحازي عليه بما يفرح به ويمدح
بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي
أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن
يتجاسر أحد على مثله ، فإن عاد ثانياً فينبغي أن يعاقب سراً ويعظم الأثر
فيه ، وينبغي أن يمنع عن كل ما يعمل في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد
أنه فيج . فإذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود في بعض النهار المشي والحركة
والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويمنع من أن يفخر على أقرانه بشيء ،
مما يملكه والداد أو بشيء من مطامحه وملابسه بل يعود التواضع
والإكرام لكل من شاهده والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من أن
يأخذ من الصبيان شيئاً بداله ، حشمة إن كان من أولاد المحتشمين بل يعلم
أن الرفعة في الإعطاء ، لا في الأخذ وأن الأخذ يؤم وخسة ودناءة ، وإن
كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من
دأب الكلب فإنه يصبص في انتظار لقمة والطمع فيها ، وينبغي أن يعود
أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتنابذ بحضرة غيره ولا يستدبر
غيره ولا يضع رجلاً على رجل . « أي أن الغزالي يرى أن الصبي بجوهره
خلق قابلاً للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يعلمان به إلى أحد الجانبين ، فمراقبة
الله فيه الليل به لاخير ، فلقد علم بن سوار بذلك ابن أخته سهل بن عبد الله
التستري كيف يذكر خالقه ، إذ قال له أذكره بقلبك عند تقلبك في ثيابك
ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك « الله معي ، الله ناظر إلى الله شاهد
شاهدي » ثم زاد إلى سبع مرات ثم إلى إحدى عشرة مرة ، فوقعت في قلبه
حلاوته ، فاتهز خاله شعوره بهذه اللذة وقال له « من كان الله معه ، وناظر
إليه ، وشاهده ، أبغضه ، أبغضه ، أبغضه »

٥٥ — مرافية الله في المعاملات المادية مع الناس : صالة المعاملات المادية لا يخرج إنسان عنها إذ لا بد له من نوع معاملة في سعيه لكسب عيشه . ولما كان الله تعالى قد قال في كتابه العزيز « كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » احتجنا لمعرفة مداخل الحلال والحرام ، وبين لنا ذلك الغزالي في قوله إن المال إنما يحرم لمعنى في عينه (كالخمر والخمرير وما يضر كالسم والقاذورات) أو خلل في جهة اكتسابه ، فما يؤخذ من غير مالك (كالأصطياد) خلل بشرط أن لا يكون الأخوذ مختصاً بذى حرمة من الآدميين ، وأما الأخوذ قهراً (كالغنيمة في الحرب) خلل إذا أخرج منها الخمس وقسم بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد . وأما ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، خلل إذا تم سبب الاستحقاق وافقصر على القدر المستحق واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق ، وأما ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، خلل إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط التقطين (الإيجاب والقبول مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط الفسدة) وأما ما يؤخذ عن رضى من غير عوض ، خلل إذا روعي فيه شروط العقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر يوارث أو غيره . وأما ما يحصل بغير اختيار كالميراث خلل إذا كان الورث قد اكتسب المال من بعض الجنيات الخمس على وجه حلال .

٥٦ — درجات الحلال والحرام : ويقول الغزالي إن الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب وأصنى من بعض ، ولذلك قسم الورع عن الحرام على أربع درجات :
(١) ورع العبد : وهو ورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء ، وهو الذى يجب الفسق باعتدائه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه .

(٢) ورع الصالحين : وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ولكن التقى به يرخس في تناول بناء على الظاهر .

(٣) ورع المتقين : وهو ورع عما لا يحرمه الفتوى ، ولا شبهة في حله ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم (وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس ، لأن أكثر المباحات داعية إلى المحظورات حتى استكثر الأكل واستعمال الطيب لمتعزب فاته يحرك الشهوة) .

(٤) ورع الصديقين : وهو الامتناع عما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس ، ولكن يتناول لغير الله على غير نية التقوى به على عبادة الله أو تنطرق إلى أسبابه المسببة له كراهية أو معصية .

ويقول الغزالي إن الحديث الشريف « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع في الشبهات وافتح الحرام ، كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه » نص في إثبات الأقسام الثلاثة : حلال مطلق (خلت عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه ، والحمل عن أسبابه ، ما تطرق إليه تحريم أو كراهية) وحرام محض (وهو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها) وشبهة (وهو ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضين للاعتقادين) .

٥٧ — مراتب الشبهات ومنازلها : ويقول الغزالي إن مشاركات الشبهة خمسة :

(١) الشك في السبب المحلل والمحرم : فإن تعادل الاحتمالين ، كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة ، كان الحكم للغالب ، وينقسم هذا إلى أربعة أقسام :

(١) أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل : فيذه شبهة يجب اجتنابها ، ويحرم الاقدام عليه (كأن يرمى إلى صيد فيجرحه ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فيذا حرام

لأن الأصل التحريم إلا إذا مات بطريق معين. وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك .

(ب) أن يعرف الحل ويشك في المحرم : فالأصل الحل وله الحكم .

(ج) أن يكون الأصل التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله فظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله : فهذا ينظر فيه فإن استندت غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذي تختار فيه أنه يحل — إذ لا يدفع اليقين بالشك — واجتنابه من الورع .

(د) أن يكون الأصل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعا : فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم إذ الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن .

(٢) شك منشؤه الاختلاط : وهذا ثلاثة أقسام :

(١) أن تستهم العين بعدد محصور (كما لو اختلطت الميتة بذكاة) فينده شبهة يجب اجتنابها بالاجماع لأنه لا مجال للاجتهاد .

(ب) حرام محصور بحلال غير محصور : (كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد بل له أن يشكح من شاء منهن) .

(ج) أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر : (كحكم الأموال في زمننا هذا) فلا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه أنه حرام وأنه حلال ، إلا أن يقرن بتلك العين علامة على أنه من الحرام ، فإن لم يكن في العين هذه العلامة فتركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله (فهو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق في الدنيا حلال ، فما جاوز حده انعكس إلى ضده ومهما حرم الكل حل الكل) وبرهان الغزالي أنه إذا وقعت هذه الواقعة ، فباطل أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا عن آخرهم ، وباطل قطعا أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمق . وفاسد أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرفعة وغصبا وتراضيا

من غير تمييز بين مال ومال ووجه ووجه ، فلم يبق إذن إلا الحل الذي رآه .
 (٣) أن يتصل بالسبب المحلل معصية إما في قرائنه وإما في لواحقه وإما
 في سوابقه أو في عوضه ، وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد
 وإبطال السبب المحلل : ويضرب لنا الغزالي مثلاً لكل فيقول : إن مثال
 المعصية في القرائن البيع في وقت النداء يوم الجمعة والبيع على بيع الغير ؛
 ومثال اللواحق كل تصرف يقضي في سياقه إلى معصية كبيع العنب من
 الخمار ، والأقيس أن ذلك صحيح والتأخوذ لحلال والرجل طاس يعقده عصفان
 الإحانة على المعصية . وأما المقدمات فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات : العليا
 تشتد الكراهة فيها ما بقي أثر في التناول كالأكل من شاة غلفت بعلف
 منقسوب ، والوسطى كالامتناع عن طعام واصل على يد سحجان ، والثالثة
 وهي تنقطع كالامتناع من حلال وصل على يد رجل عصي الله بالزنا أو القذف
 وليس هو كما لو عصى بأكل الحرام . وللمعصية في العوض أيضاً ثلاث
 درجات : العليا تشتد الكراهة فيها كأن يشتري شيئاً في الذمة ويقضي ثمنه
 من غضب أو مال حرام ، فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن
 فهو حلال وتركه ليس بواجب . فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام
 فكأنه لم يقض الثمن ، فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم
 بأنه حرام فقد برئت ذمته ، وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل
 البراءة . والوسطى أن لا يكون العوض غضباً ولا حراماً ولكن يتبرأ المعصية
 كما لو سلم عوضاً عن الثمن غضباً والآخذ شارب الخمر . والسفلى هي درجة
 الموسوسين وذلك أن يحلف إنسان على أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها
 واشترى به ثوباً فهذا لا كراهية فيه ، والورع عنه وسوسة !

(٤) الاختلاف في الأدلة : فإن ذلك كالاختلاف في السبب ، لأن السبب
 سبب لحكم الحل والحرمة ، والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة ، فهو سبب
 في حق المعرفة ، وما لم يثبت في معرفة الغير فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن
 جرى سببه في علم الله ، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع (مثل

تعارض عموميين في القرآن أو السنة أو تعارض قياسين وعموم . وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح ، فإن ظهر ترجيح في جانب الخطر وجب الأخذ به ، وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به وإن كان الورع تركه (أو لتعارض العلامات الدالة على الحل والحرمه) كتعارض شهادتي فاسقين أو قول صبي وبالغ ، فإن ظهر ترجيح حكم به والورع الاجتناب : وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف (أو لتعارض الأشباه في الصفات التي تناط بها الأحكام) كأن يوصى بمال للفقير فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه ، وبينهما درجات لا تخصي يقع الشك فيها ، فالمفتي يفتي بحسب الظن ، والورع الاجتناب) !

(٥) ويقول الغزالي إنه يجب استفتاء القلب تبعاً للحديث الشريف «استفت قلبك : وإن أفنوك وأفنوك » ، ومن لم يثق بقلب نفسه فليبتس التور بقلب العالم للوفق المراقب لدقائق الأحوال ، أي أنه يرى وجوب أن لا يقتصر الإنسان على اجتناب الحرام بل يثق بمواقع الشهوات ومقتل الريب ، ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه فإذا وجد فيه حذرة اجتنبه وإذا حلت إليه سلعة رآه أمرها فليستأل عنها حتى يعرف وإلا آكل الشهية (فإن كان المتعامل تاجراً وجب أن ينظر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله) .

٥٨ — العدل في المعاملة : وبين لنا الغزالي العدل واجتناب الظلم في المعاملة ، فيقول :

(١) بوجوب ملاحظة ما يعم ضرره : فالاحتكار ظلم عام وصاحبه مذموم في الشرع إذا كان احتكاًراً للطعام (في ادخار الطعام انتظاراً لغلاء الأسعار) ، وأما ما ليس بقوة ولا هو معين على القوة كالأدوية والعقاقير وأمثاله فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مضموماً ، وأما ما يعين على القوة كاللحم والفواكه وما يسد مسداً يفتى عن القوة في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن الدائمة عليه ، فإذا في محل نظر : وترويح الزيف من الدراهم

في أثناء النقد : فهو ظلم إذ يستضر به العامل إن لم يعرف وإن عرف سير وجهه على غيره .

(٢) ما يخص ضرره العامل : فيكل ما يستضر به العامل فهو ظلم وإنما العدل أن لا يضر بأخيه السلم ، والضابط السكلي فيه أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه ، فيكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به بل ينبغي أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره . أما تفصيله ففي أربعة أمور :

(أ) ترك الثناء : فإن وصفه لاسعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبس وظلم مع كونه كذباً . وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، وإن أتى على السعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه ، إلا أن يثنى على السعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري ما لم يذكره ولا ينبغي أن يخلف عليه ألبته .

(ب) أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئاً فذلك واجب : فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً وكان تاركاً للنصح في المعاملة والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً ، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو طامله به غيره لما ارتضاه لنفسه . بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيوبها إن كان فيها عيب ، فذلك يتخلص .

(ج) أن لا يكتم في المقدار شيئاً . وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل ، قال الله تعالى « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » . ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجع إذا أعلى وينقص إذا أخذ . وبالجلة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلمة ولا ينتصف بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت المطففين .

(د) أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفى منه شيئاً :

(٣) الإحسان في المعاملة : ويقول الغزالي إن رتبة الإحسان تنال بواحد من ستة أمور :

- (أ) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة .
- (ب) والشترى إن اشترى طعاماً من ضعيف ، أو شيئاً من فقير ، فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسناً ، والكمال في أن لا يغبن ولا يغبن .
- (ج) في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه ، مرة بالمساهمة وحفظ البعض ومرة بالإمهال والتأخير ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد .
- (د) في توفية الدين ومن الإحسان فيه حسن القضاء . وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى إليه يتقاضاه ، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن وإن عجز فليؤد قضاءه مهما قدر ، ومهما كلفه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسطين إلى من عليه الدين ، فإن المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة ، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري . فإن البائع راغب عن السلعة ينبغي ترويحها والمشتري محتاج إليها ، هذا هو الأحسن إلا أن يتعمد من عليه الدين حده ، فعند ذلك نصرته في منعه من تعديه .
- (هـ) أن يقبل من يستقبله ، فإنه لا يستقبل إلا متقدماً مستظراً بالبيع ، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه .
- (و) أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالفسيلة ، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة .
- ٥٩ — ويقول الغزالي إن شفقة التاجر على دينه تتم بمراعاة أمور أهمها : حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة ، فليؤد بها الاستغناء ، بالخلال عن الناس ، واستعانة بما يكسبه على الدين وقياماً بكفاية العيال ، وأن يقصد القيام في صنعه أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، وأن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة (الساجد) قال تعالى : « رجال لا تلهيهم

تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ثم مهبط سمع الأذان فينبغي أن لا يهرج على شغل ويتزعج عن مكانه ويدع كل ما كان فيه (والأفضل اتخاذ يوم الجمعة راحة) وأن لا يقتصر على هذا بل يلزم ذكر الله سبحانه في السوق ويشغل بالتمليل والتسبيح : وينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع كل واحد من معامليه ، فإنه يراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة : إنه لم أقدم عليها ، ولأجل ماذا ؟ .

٦٠ — مراقبة الله في العجب : ويقول الغزالي إن العجب مذموم وآفاته كثيرة ، فإنه يدعو إلى التكبر لأنه أحد أسبابه فيقولد منه (مع العباد) ومن التكبر الآفات الكثيرة ، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له ، وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتعجب بها ، ويعين على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكن منها ، ثم إذا أعجب بها عصى عن آفاتها ، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويذكرها ، ويستكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ .

ويقول الغزالي : إن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها ^(١) مع نسيان إضافتها إلى النعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقاً وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا (كأن يتوقع

(١) بالفرح بكل خير ورفعة وعلم ومحل ورأي وعقل وجل وقوة وكل وسف كمال والاطمئنان إليه من حيث أن صفته لا من حيث أنه غلبة من الله تعالى ونعمة منه .

إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ، واستبعد أنه يحرى عليه مكروه
سمى هذا دلالة بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة (ويكون
مدلا عليه) .

٦١ — مراقبة الله في الحسد : ويقول الغزالي إن الحسد صفة القلب
لا صفة الفعل ، قال تعالى : « إن تحسبكم حسنة تسوء » ، أما الفعل فهو
غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد . وهذا الحسد ليس مظنة يحجب
الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى . وإنما يحجب الاستحلال
من الأسباب الظاهرة على الجوارح (بقول أو فعل) ، فأما إذا كفت
ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال
النعمة حتى كأنك تحقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة
من حبة العقل في مقابلة اليد من حبة الطبع فقد أدبت الواجب عليك ،
ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا (والمستغرق
بحسب الله تعالى ، لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل
بعين واحدة وهي عين الرحمة ويرى الكل عبداً لله وأفعالهم أفعالا لله
ويراهم مسخرين) ، وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد
على جوارحه ، والظاهر أنه لا يحصل عن إثم بقدر قوة حب زوال
النعمة وضعفه .

٦٢ — مراقبة الله في التكبرياء : وقال تعالى « سأصرف عن آياتي
الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » : ويقول الغزالي إن التكبر ينقسم
إلى خلق باطن في النفس (يسمى كبرا) وإلى أعمال ظاهرة تصدر عن
الجوارح (يسمى تكبرا) ، فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو
الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق التكبر عليه (فيستعظم نفسه)
فيذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح
وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك . ثم هذه العزة تقتضي
أعمالا في الظاهر والباطن وهي ثمرات ، ويسمى ذلك تكبرا فإنه بهما عظم

عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلة ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتد كبره ، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ، فإن كان دون ذلك فيانف من مساواته وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المخالف وانظر أن يبدأ بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه ، وإن حاج وتناظر أنف أن يرد عليه ، وإن وعظ استنكف من القبول ، وإن وعظ عنف في النصيح ، وإن رد عليه شيء من قوله غضب ، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستلهم واتهمهم وامتن عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخير استجبالاتهم واستحقاراً ، والكبر صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها فيدعوهم إلى كل الأخلاق الذميمة إذ هي متلازمة والبعض منها دافع إلى البعض لا محالة فلا يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقبل الحق وينقاد له ويزدري بالناس « وإذا قيل له اتق الله ، أخذته العزة بالإثم » .

ويقول الغزالي إن التكبر باعتبار التكبر عليه ثلاثة أقسام أحدها التكبر على الله (كفرعون إذ قال لتكبره أنا ربكم الأعلى إذ استنكف أن يكون عبداً لله ، ولا منار إلا الجبل المحض) . ثانيها التكبر على الرسل من حيث تعزذ النفس وترفعها عن الانقياد لبشر ، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل ، وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبراً » . ثالثها التكبر على العباد (وهذه رذيلة عظيمة لأن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالله الملك القادر) .

٦٣ — مراقبة الله في الصلوة : والصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق

(كالصحة بسبب الجوار أو الاجتماع في المدرسة أو في السوق أو في الأسفار) وإلى ما ينشأ اختياراً أو بقصد ، ويقول الغزالي إن الصحة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ، وهذه الأمور لا قصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه ، فإن غير المحبوب يجنب ويهمل ، والذي يجب فإما أن يحب لذاته وإما أن يحب للتوصل إلى مقصود مقصود على الدنيا وحفظها (وهو مذموم إن كان القصد مذموماً كحيازة أموال اليتامى ، ومباح إن كان القصد التوصل إلى مباح كنبيل جاه أو مال أو علم) وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة (كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به إلى تحسين العلم وتحسين العمل للفوز في الآخرة ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم) ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى بأن يحب لله وفي الله ، وهذا أعلى الدرجات وأدقها وأغضها (وهو ممكن لأن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد)^(١)

ويقول الغزالي إن « كل من يحب في الله ، لا بد أن يفيض في الله ، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله ، فإن عساه فلا بد أن تفيضه ، فإذا اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، وإظهار البغض إما بالقول فكيف اللسان عن مكانته ومعادته مرة وبلاستخفاف والتفليظ في القول أخرى ، وإما في الفعل فبقطع السعي في إعاقته مرة وبالسعي في إيساره وإفساد مآربه أخرى ، وبعض هذا أشد من بعض وهو بحسب درجات الفسق والعصية الفاسدة منه ، أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متقدم عليها ولا يضر عليها ، فلا تولى فيه السر والإغماض » ، وتطبيقاً على هذا المبدأ ترى الغزالي

(١) (فمن أحب إنساناً حباً شديداً أحب عبده وأحب عبده من عبده وأحب من أحب عبده عبده ، وأحب من شتمك من شتمك من الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب السوء فليس يمتنع إلى كبر موجود سواء كان كبر موجود سواء أثر من آثاره)

يقول إن الأولى الإعراض عن بعض بفعل بتأذى به غيره بل الاستحباب في إهاتهم (وذلك كالظلم في الدماء والأموال والأعراض - وبعضها أشد من بعض -) ومن يدعو غيره لافساد كصاحب الخمر الذي يجمع بين النساء والرجال ويروج أسباب الشرب والفساد) ، وكذلك يرى الاستحباب في إظهار بعض البتدع الذي يدعو إلى بدعته ، ومعاداته والانتفاع عنه وتحقيره والتشجيع عليه ببدعته وتنقية الناس عنه أشد (كترك الجواب عن سلامه في ماله ، أما إن سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه) ، ويرى استحباب الإعراض عن العامي البتدع الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به وانصح ولم ينتصح (إن كان في الإعراض عنه تقيح لبذعته في عينه) وأما الكافر فيقتل ويرقى إن كان محارباً ، وأما الذي يرى أنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقيق له بالاضطرار إلى أضييق الطرق وترك القامحة بالسلام ، فإذا قلب السلام عليك قلت وعليك : ويرى أن الأولى الكف عن مخالطته ومعاذته ومواكاته ، وأن الانسباط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهي إلى حد التحريم . وأما الذي يفسق في نفسه بمعارفة محظور يخصه كالذي يشرب ويرقى ، فيرى أنه في وقت مباشرته إن صودف بحجب منعه عما يمتنع به ولو بالضرب والاستحقاق^(١) وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فيجب نصحه إن تحقق أن نصحه ينفعه عن العود إليه ، وإن لم يتحقق وإن سكته كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع (والمستقى هو القلب في الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه) .

٦٣ - وجبة نظرنا في معاملة غير المسلمين : وغير المسلمين ينقسمون إلى

(١) ويرى وجوب ترك عبودية العمل لأولياء الأمور معاً من القوضي وبإسداء استعمال هذا الحق ، ويؤدى إلى الجرائم .

مشرك نجس (ويدخل فيهم الوثنيون والنجوس والطبيعويون) وإلى كتابيين (وأظهروهم الآن المسيحيون واليهود) ، والفريق الأول لسكثرة عدده في العالم أرى أن نخوتنا الدينية توجب على خاصتنا الاتصال به لكي ننشر الدعوة الإسلامية بين ظيранهم ، وهذا لا يكون بالابتعاد والعنف بل يكون بالتودد واللفظ ، وأما الفريق الثاني فأرى أنه مادامت المعاملات السائدة تقتضي الاتصال ، ويدعو هذا الاتصال إلى الحسن في المعاملة والاختلاص فيها ، ومادامت الإنسانية تقرر اجتماعنا جميعا في الشعور بالإنسانية والالام ، وإن اختلف هذا الشعور واختلف مداه واختلفت درجته من حيث الشعور الروحي ، ومادام الناس جميعا عباداً لله فيجب أن نحس فيهم بحاسنهم الخلقية والمعنوية لهذا المعنى ، ومادام القلب لا يتمكن قراءته والخاصة لا يستطيع معرفتها فقد يكون مؤمناً سرا بقلبه وقد يموت مسلماً ، مادام هذا كذلك فالرأي وجوب أن نفهم أن اختلاف الأديان أمر أراد الله إذ قال في كتابه الكريم « إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » وقال « قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » وقال « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، فيجب أن نعامل غير المسلمين نفس المعاملة الأمينة التي نعامل بها المسلم ، وفي تعميم حديث « خاب عبد خسر ، لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر » خير دليل على ذلك .

وقد وضع لنا النبي الكريم وأصحابه أسوة حسنة إذ كانوا يحضرون ولائم غير المسلمين ويقشون بحالهم ويشيعون جنازهم ويعزونهم في مصائبهم ، وأمرنا الإسلام بتساواتهم أمام القانون وأن نوفيهم حقوقهم كاملة ولا نبخسهم منها شيئاً ، بل لقد أمرنا الله في كتابه العزيز أن نعامل غير المسلمين كما نعامل المسلمين بتكريم الأخلاق عن صفاء نية لا مواربة ومداهنة خوفاً منهم أو طمعاً فيهم فقال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤوا وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب القسطين » ، فيجب أن نعامل مجموعهم معاملة صافية وصديقههم معاملة مخصصة أمينة ، وأن

يحب فيهم ما يحب من جمال حسي وخلق ومعنوي ، وأن نكره فيهم ما يكره من قبح وأقبح التبع سوء العقيدة وفسادها ، ولما إذا كرهنا سوء العقيدة فليس معنى هذا كراهية أفعالها ، وإن كنا نبغض فساد العقيدة فليس معنى هذا البغض لاعتقدها ، لأنه يجب أن يحب لعماد الله جميعا ما يحب لأنفسنا فيجب أن يحب لفساد العقيدة أن يقطع عنها ويرجع ربه ، فإذا رجع فرحنا برجوعه ، وإذا لم يرجع فقد يرجع يوماً ما وقد يكون راجعاً بالفعل وإن كرهنا لاعتبارات كثيرة يراها قد رجع سرّاً ، وإذا لم يرجع فأمره الله ، ويجب أن نحزن على عدم رجوعه لا أن نبغضه عليه لأننا لا ندري ماذا ختم له ، فقد يكون في ظاهره غير راجع وفي الحقيقة قد رجع ، والمعاملة الأمانة المخلصة على هذا الاعتبار يجب في الله لأنك قد رافقت الله في مقامه عبد من عباده ، وإنك إذا ظهر من هذا الغير مسلم ما يدل على الإصرار على عقيدته بمحاربة الإسلام أو الطعن فيه أو إيذاء المسلمين لأنهم مسلمون أو العمل على إخراج مسلم عن دينه بالاغراء أو التهديد ، فهذا يجب بغضه (لعمله ولذاته) ويجب تحقيره والازدراء به وقطع كل معاملة معه بل معاداته ، وهذا فقط يكون بغضه في سبيل الله .

هذه هي وجهة نظرنا ، وليس معنى ذلك أن الغزالي مخطئ ، في وجهة نظره لأنها في زمانه كانت أحسن وجهة لذهاب كل الملل والنحل في التعصب إلى أبعد مدى ، وحتى إذا قلنا بأن وجهة نظره في بغض غير المسلمين وفي نوع معاملتهم خاطئة ، فإنه لا يقلل من مكانة نبل آرائه إذا المعصية والكمال لله وحده . وآراء الغزالي التي يمكن أن تكون موضع خلاف قليلة ولا يمكن أن يقال إنه خاطئ ، فيها بل كل ما يمكن قوله إنه قد توجد وجهات نظر أخرى تكون موضعاً للتساؤل هل الأحسن الأخذ بها أم لا ، فمثلاً يرى الغزالي وجوب أن لا يكون التاجر (الشفيق على دينه) شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج وبأن يركب البحر في التجارة فيما مكروهه ، ولما نرى أن قوله تعالى

« فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله » لا يتنافى مع الجحد في الترويج لسلعته والمنافسة المشروقة والسعي لأن يكون أول داخل وآخر خارج وأن يركب البحر أو غيره سعياً وراء الرزق وابتغاء من فضل الله . وذكر عند كلامه عن التكاثر وجوب أن يذكر الرجل اسم الله ويكبر إذا أراد الاتصال بهيمى بزوجه ، وقد يكون هذا موضع تساؤل هل هذا أحسن أم جعل التكبير سابقاً على الفعل لأن الإنسان في هذه الحالة يكون في حالة يحسن أن يحترم الذكر إياها ، وأورد الغزالي نفسه في كتابه عند كلامه عن الصلاة حديث النبي عن أن يقرب (المحصور) في بول أو غائط (المجاهد لها أي الواحد رغبة قوية فيهما) الصلاة لكي يتفرغ للعلى لصلاته ولا يكبلها يعرض له في الصلاة ما يضطره إلى الضغط على أعضائه أو التفكير فيهما ، فيمكن قياس هذه بطله ، كما يمكن أن يقال بوجوب ذكر الله في أي حال ولو كان الشخص نجسا (لخروج النبي منه لاتصاله بزوجه أو لاحتلامه في منامه ، على أن يكون هذا بقلبه لا بلسانه) كما يمكن أن يقال بوجوب ذكر الله ولكن يجب إجلال ذكره في حالة التباشرة للتكاثر أو البول أو الغائط ، والمستغنى فيه هو القلب .

٦٥ - مراغبة الله في السماع والوجد : ويقول الغزالي إنه لا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس . بل قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته ، أما القياس فهو أن القناء سماع صوت طيب مؤززون مفهوم المعنى بحركته للقلب . أما سماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالقياس (إذ يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به) وبالنص (إذ امتن الله تعالى على عباده به بقوله « يزيد في الخلق ما يشاء » - ومنه الصوت الحسن - ويدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن) قوله « إن أنكر الأصوات لصوت الخير » . والوزن وراء الحسن (وإن لله تعالى سرا في مناسبة النفث للوزونة للأرواح حتى أنها تتأثر فيها تأثيراً عجيباً . فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها

ما يضحك ويضطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء الرقص بحركات على وزنها باليد والرجل والرأس (وهذا جار في الأوتار بالتأثير بالنغمات الموزونة لا يفهم معاني الشعر) .

فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب : ويقول الغزالي إنها سبعة مواضع :

(١) سماع هو من جملة القربات : وهو سماع من أحب الله واشتاق إلى لقائه . فالسماع في حقه مبيع لشوقه ومؤكده لعشقه ومستخرج منه أحوالا^(١) تكون أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات . ثم يتبع الصفاء الحاصل به المشاهدات والكاشفات .

(٢) غناء الحبيب : وهو مباح لإهاجته الشوق إلى بيت الله تعالى بالغناء على القليل والشاهين بأشعار نظمت في وصف الكعبة والقام والحطيم وزمزم وسائر الشاعر .

(٣) ما يعتاده الغزاة من الأشعار وطرق الألحان وطرق الوزن المسجعة لتحريض الناس على الغزو واستثارة داعيته بالتشجيع وتحريك الفيض والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال ، وذلك أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو .

(٤) الجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء والغرض منها التشجيع للنفس والأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة . وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس : وذلك مباح في قتال مباح ولذلك ينبغي أن يمنع من سائر الأصوات والألحان المرفقة التي تحمل عقدة الشجاعة وتضعف صرامة النفس وتشوق إلى الأهل والوطن وتورث الفتور في القتال (كالضرب بالشاهين لأن صوته محزون مرفق) .

(١) تسمى بشان الصورية وجدا مأخوذ من الوجود والصادقة أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع .

(٥) أصوات النياحة ولغمتها وتأثيرها في تهيج الحزن والبكاء، وملازمة الكآبة والحزن؛ ويدم فيها ما كان حزناً على ما فات (كالحزن على الأموات)، ويحمد حزن الإنسان ونحازنه على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه وتأنيكه على خطاياه. وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على النبر بألحانه الأشعار المحزنة الرقيقة للقلب ولا أن يبكي ويتباكى لينوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه، ولكن يدم تكثير الأشعار في الواعظ (إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استتماد واستئناس) لاسيما ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال العشوق وروح الوصال وألم الفراق التي لا تحرك من قلوب أجلاف العوام إلا المستكن من الشهوات.

(٦) السماع في أوقات السرور تأكيذاً للسرور وتهيجاً له؛ وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً، وقد أنشد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها اليمعوت فينا جئت بالأمر المطاع

(٧) سماع العشاق تأكيذاً للذة (في مشاهدة العشوق) وتحريكاً للشوق وتهيجاً للعشق وتسليّة للنفس وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال مع الأطناب في وصف حسن المحبوب (إن كان مع الفارقة)؛ وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته فيصغى إلى غنائها وكذلك إن غضبت منه أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال، فإن طلقها حرم عليه ذلك بعده، وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها، وكان يتزل ما يسمع على ما تمثل في نفسه، فهذا حرام لأنه يحرك الفكر في الأفعال المحظورة ويهيج للذاتية إلى ما لا يباح الوصول إليه.

٦٦ — ويقول الغزالي إنه يحرم السماع بخمسة عوارض: أن يكون السماع امرأة لا يحل النظر إليها وتحشى الفتنة من سماعها (وفي معناها الصبي

الأمرد الذي تخشى قنته) ، وأن تكون الآلة من شعار أهل الشرب أو الخنثين (وهي الزامير والأوتار وطبل الكوبة) ، وأن يكون في نظم الصوت وهو الشعر شيء من الخنا والفحش وهجو غير الكفار وأهل البدع أو الكذب على الله ورسوله ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها (وأما الفسيب وهو التشبيب بوصف الحدود والأصداغ وحسن القد والقامة وصائر أوصاف النساء ، فلا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلى السمع أن لا يترله على امرأة معينة ، فإن أنزله فليترله على من يحل له من زوجته ، فإن أنزله على أجنبية فهو العاصي بإجالة الفكر فيه) ، وأن تكون الشهوة غالبية على السمع وكان في غرة الشباب ، وأن يتخذ دينه وهجره ويقصر عليه أكثر أوقاته (إذ ترد شهادته لسفاهته لأن السماع ولو أنه لذة مباحة إلا أنه طهر ، والواطئة على اللهو جنابة دينية) .

٦٧ - مراقبة الله في الجاه : الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها والتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه (كالمُدح والاطراء ، كالخدمة والاعانة وكالتعظيم والتوقير بالمفاخرة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد والإيتار وترك المنازعة ^(١)) .

ويقول الغزالي إن الجاه أحب من المال ، وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه :

- (١) أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه ؛
- (٢) أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويقصب ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن ، وأما القلوب إذا ملكتها فلا تعرض لهذه

(١) هذا معنى الجاه قيام المصلحة في قلوب الناس أي اعتماد القلوب لاعتد من نعمت الكمال فيه (ولم يكن كالألف في نفسه) ، مصدر ما يفتقدون من كماله فاعتمدوا له قلوبهم ، وغندر إذعان القلوب يكون غندرة على القلوب ، وغندر غندرة على القلوب يكون فرجة وجه الجاه .

الآفات ، وإنما تنصب القلوب بالتصريف وتقيح الحال وتغير الاعتقاد
غيا صدق به من أوصاف الكمال . وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على
محاولة فعله .

و (٣) أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب
ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعن لشخص واعتقدت كماله ، أفسحت الألسنة
لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً ، ولهذا
المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لأن ذلك إذا استطار في الأقطار
اقتنص القلوب ودعاها إلى الازدحام والتعظيم . والغزالي لا يرى الكمال
الحقيقي إلا العلم (بعرفة الله) والخبرة (بالخلاص من أسر الشهوات ونجوم
الدنيا والاستبلاء عليها بالقرير) والبعد عن التغير والتأثر بالعوارض ،
ليقرب إلى الله تعالى وتعظم منزلته عنده ويتشبه بالملائكة . ولذا نراه يذم
الحياه بعناءه اليوم ، ويقول إن حكم الحياه حكم الأموال ، عرض من أعراض
الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالنمل ، وحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات
البدن غير مذموم ، ولكن يذم حبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن
وحاجته (ولا يوصف صاحبه بالفسق ما لم يتوصل إليه بعبادة وما لم يحمله
الحب على مباشرة معصية . وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع
وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة وأرتكاب محظور بطلب قيام المنزلة في
قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب !
ويباح طلب المنزلة بصفة هو متصف بها أو بإخفاء عيب من عيوبه ومعصية
من معاصيه حتى لا يعلم ، لأنه صادق في الأول ، سائر للقيح في الثاني .

٦٨ - أسباب حب المدح : ويرى الغزالي أن حب المدح والتأذى القلب
به ثلاثة أسباب قد تجمع في مدح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد
تفرق فتتقص اللذة بها . نرى ذكر علاجها الذي رآه معيا :
(١) شعور النفس بالكمال : (وهو أقوى الأسباب) . فهما شعرت
النفس بكمالها ، ارتاحت واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس المدوح

بكمالها . فإن كان الوصف الذي به مدح جلياً محسوساً . كانت اللذة به أقل
ولكنه لا يتخلو عن لذة (كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون) .
وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم (كالثناء عليه
بكمال العلم وبكمال الورع أو بالحسن المطلق) . وإنما تعظم اللذة بهذه العلة
مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجاوز في القول
إلا عن تحقيق (وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالذكاء) . ويقول
الغزالي إن طريق العلاج ملاحظة هذا السبب الذي لأجله يحب المدح ويكره
الدم . وطريقك فيه أن ترجع إلى الصفة التي بمدحك بها . فإن كانت من
الأعراض الدنيوية (كالثروة والجاه) فمن قلة العقل الفرح بها لأنها
عروض زائلة . وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بل بوجودها
والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها
(كالورع والعلم) فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة . ثم إن
كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله
عليك لا بمدح المادح . لأنه لا يزيدك فضلاً . وإن كانت الصفة التي مدحت
بها أنت خال عنها . ففرحك بالمدح غاية الجنون إذ هو إما استمراء بك
أو غاية الخجل .

(٢) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه يريد له
ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته . ومثل القلوب محبوب والشعور بحصوله
لذيذ . وأن تناء سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه (لاسيما مهما كان
الجمع أكثر) وهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تقمع قدرته
وينتفع باقتناص قلبه كالمملوك والأكابر . ويضعف مهما كان المادح لا يؤبه
له ولا يقدر على شيء . فإن القدرة عليه بذلك قلبه قدرة على أمر خفي . فلا
يدل المدح إلا على قدرة قاصر . ويقول الغزالي إن معالجة هذا السبب بقطع
السمع عن الناس وبطلب المنزلة عند الله وبأن تعلم أن مالك المنزلة في قلوب
الناس وفرحك به يسقط مترئيتك عند الله . فكيف تفرح به ؟

(٣) أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالشناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لثبته لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه المدة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الجاهل ما مدح به . ولسكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه . فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة تناء القوى الممنوعة عن التواضع بالشناء أشد . ويقول الغزالي إن هذه الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح . ترجع أيضاً إلى قدرة طارضة لا نبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغي أن يغمى بمدح المادح ويكرهه ويفضبه به . ومهما علم أن أمره بيد الخالق وأن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى : قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم . وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بتأيمه من أمر دينه .

٦٩ — أسباب كراهة الدم : ويقول الغزالي إن العلة في كراهة الدم ، ضد العلة في حب المدح ، فعلاجه أيضاً يفرم منه . فإن كان من ذمك صادقا وقصده النصيح والشفقة فلا ينبغي أن تذمه بل ينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة العسفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، وإن كان قصده الايذاء والتعنت فهو قد تضرر به في دينه وأنت قد انتفعت بقوله (إذ ذكرتك عيبك أو أرشدك إليه أو فبحه في عينك) : وإن افتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى : فينبغي أن لا تذكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر في أنك في غنى عنه وأنت إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو من أمثاله وأشباهه . وما ستره الله من عيوبك أكثر : فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعك على عيوبك . وأن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك (إذ أهدى إليك حسنة بغيته) .

٧٠ — أحوال الناس بالإضافة إلى الزام والمادح : ويقول الغزالي إن للناس أربعة أحوال :

(١) أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويفضبه من الذم ويحقد على

الذام ويكافئه أو يحب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق ، وهو غاية درجات العصية في هذا الباب .

(٢) أن يتمتع في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ؛ ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال .

(٣) أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا أول درجات الكمال ، وعلاماته أن لا يجد في نفسه استنقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح ، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لا يكون موت المادح الطرى أشد نكابة في قلبه من موت الذام . وأن لا يكون غمه بعصية المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بعصية الذام ، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام .

(٤) الصدق في العبادة ، وهو أن يكره للدخ إذ يعلم أنه فتنة عليه ، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهجه ومهد إليه حسناته .

٧٩ — مراقبة الله في اخلاص العمل : ويقول الغزالي إن الرياء حرام والمرأى عند الله ممقوت ، والرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها ، فخذ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله ، والرأى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي مجامع ما يترين به العبد للناس ، وهو البدن والخزى وبالقول وبالعمل وبالأصحاب والزائرين والمخالطين .

فالرياء هو طلب الجاه ، وهو يكون بالعبادات أو بغير العبادات (كالرياء بإظهار الجمال وأنواع التوسيع والتفاحش وإظهار التودد إلى الناس) ، إلا أن طلب الجاه بأعمال ليست من الطاعات أهون من الرياء بالطاعات ،

وطلب الجاه كطلب المال يحرم كسبه بتلييسات وأسباب محظورات ، وأما سمعته من غير حرص منك على طلبه ومن غير اعتناء بزواله إن زال فلا ضرر فيه . ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه (أو المال) نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم (وهي رغبة تدم أو تمدح بحسب الغرض المطلوب بها) . وإذا لم يكن للرأى بالعبادات إلا قصد الرياء المحض دون الأجر ، فتبطل عبادته بل يعصى بذلك ويأثم . لأن فيه تلييساً ومكرراً على الناس . لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وليس كذلك (والتلييس في أمر الدنيا حرام أيضاً) وهو . هما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستمري . بالله إذ قصد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف لا يملك له ضرراً ولا نفعاً ، ما ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه . ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر . ولو لم يكن في الرياء إلا أن يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر ككفر أجلياً ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن الرأى عظم في قلبه الناس فاقترضت تلك العظمة أن يسجد ويركع ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فعند هذا كان شركاً خفياً .

٧٢ — ويقول الغزالي إن أغلظ الرياء هو الرياء بالأصول وأغلظها الرياء بأصل الايمان (وصاحبه منافق مغلط في النار ، وهو من يعتقد ككفرأ أو بدعة وهو يظهر خلافه) ويليه الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين (كأن يصوم رمضان وهو يشتمى خلوة من الخلق ليفطر) ، ويليه الرياء بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولا يثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها (كحضور الجماعة في الصلاة وعبادة الريض واتباع الجنائزة . وهذا دون ما قبله) . أما الرياء بأوصاف العبادات فعلى ثلاث درجات :

(١) أن يرأى بفعل ما في تركه نقصان العبادة (كالذى إذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات) ، وهذا استمراء بمقوت .
 (٢) أن يرأى بفعل مالا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكلفة والتمتع لعبادته (ككثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت) .
 (٣) أن يرأى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا (كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول) ، والكل مذموم .
 وللمرأى مقصود لا محالة ، وللمرأى لأجله ثلاث درجات :

(١) أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية (كأن يظهر الحكمة على سبيل الوعظ وقصده التحبيب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، أو يظهر الورع ليعرف بالأمانة فيولى الأوقاف أو مال الأيتام فيأخذها) ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها (كأن يجحد وديعة) ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى (ويتصدق بالمال في مثالي ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره) .

(٢) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا (كالذى يشتغل بالوعظ لئيدل له الأموال وترغب في نكاحه النساء الجميلات) .
 (٣) أن لا يقصد نيل وإدراك حظ ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة (كالذى يدعى إلى طعام فيمتنع ليقطن أنه صائم) .

٧٣ — ويقول الغزالي إن الرياء جلي وخفي ، فالجلي هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا هو مالا يحمل على العمل بمجردة إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، وأخفى من ذلك مالا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ، ومهما لم يؤثر في الدماء إلى العمل لم يمكن أن

يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته .
وأخفى من ذلك أن يحتفى بحيث لا يريد الإطلاع ولا يسر بظهور طاعته
ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاعة والتوفير وأن
يثنوا عليه ، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، وكل ذلك يوشك
أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون ، ولكن ليس كل شوب
محبطاً للأجر ، إذ السرور أقسام لا يكره منها إلا أن يكون فرحه تقيام
منزلته في قلوب الناس ، فيحمد فرحه بحمیل نظر الله له باطلاع الخلق على
الجميل من أحواله « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا » وأن
يستدل باظهار الله الجميل وسره القبيح عليه في الدنيا إنه كذلك يفعله في
الآخرة ، وأن يسر باقتداء المظلمين به في الطاعة (لأن له زيادة على أجر
العلانية بما أظهر آخراً ، أجر السر بما قصد أولاً من إخفاء الطاعة والاختلاص
لله ، ومثل أجر أعمال المتقين به) ، وأن يفرح بطاعة المظلمين على طاعته
في مدحهم ومحبتهم للمطيع ويميل قلوبهم إلى الطاعة (ويكون فرحه بحمدهم
غيره مثل فرحه بحمدهم إياه) .

٧٤ — وإذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه بعد الفراغ
سرور مجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لا يفسد العمل ، إذ العمل قد تم على
نعت الإخلاص سالماً عن الرياء ، ويقول الغزالي إن الاظهار قسطان :
(١) إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها للحديث
القائل « من سن سنة حسنة فعمل بها ، كان له أجرها وأجر من تبعه » .
(٢) أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه
والخطر في هذا أشد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجري في
الحكايات زيادة ومبالغة ، والنفس لذة في إظهار الدواوى العظيمة ، إلا أنه
لو نظر إلى الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو
من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه
وصفرت نفسه في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند

من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه ، فهو جائر بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلعت عن جميع الآفات لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير ... خيراً

٧٥ - والأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية ، ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ما يحتاج به الخواطر في الشهوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك ، فارادة العبد لإخفائها وبما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك ، ويقول الغزالي إن للصادق الذي لا يرانى ستر المعاصي ويصح قصده فيه ويصح اعتناؤه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه :

(١) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة إذ ورد في الحديث الشريف « ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا ، إلا ستره الله عليه في الآخرة » وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان .

(٢) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها للحديث الشريف « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستر بستر الله » ، فهو وإن عصى الله بالذنوب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضاً ، وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله ظهور المعاصي .

(٣) أن يكره ذم الناس له به (كما يكره محمد) من حيث أن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى وذكره . وهذا أيضاً من قوة الإيمان .

(٤) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته ذم الناس من حيث يتأذى بطبعه فإن الدم مؤلم للقلب ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص ، وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته

إلى ما لا يجوز حذراً من ذمهم (لأنه لا يجوز أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله) .

(٥) أن يكره الدم من حيث أن الدام قد عصى الله تعالى به ، وهذا من الإيمان .

(٦) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه .

(٧) مجرد الحياء من القبايح إذا شوهدت منه ، وهو خلق كريم (وأحسن منه أن تستحي من الله) .

(٨) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجري ، عليه غيره ويقتدى به ، وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة ، ويختص ذلك بمن يقتدى به ، وهذه العلة أيضاً ينبغي أن يخفى العاصي أيضاً معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه .

٧٦ — ومن الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرئياً به ، وذلك غلط وموافقة للشيطان ، ويقول الفزالي بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ، أن :

(١) الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها (كالصوم والصلاة والحج) فطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل فيبعت على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه ، فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المتزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء فليشتغل بالعمل . الثانية أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغي أن يترك العمل ، لأنه وجد باعثاً دينياً فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول ، والثالثة أن يعقد على الإخلاص ثم يعطراً الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتم العمل (فمن مكاييد الشيطان ترك العمل خوفاً

على الناس أن يقولوا إنه مرء، فيعصون الله بهذا : لأنه أساء الظن بالمسلمين
ثم إن كان فلا يضره قوطم ويقوته ثواب العبادة ، وترك العمل خوفاً من
قوطم إنه مرء هو عين الرياء .

(٣) ما يتعلق بالخلق وتعلم فيه الآفات والأخطار : فالإمارة مثلاً من
أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص : فإذا صارت الولاية
محبوبة (لحب الجاه وتقاذ الأمر) كان الواي ساعياً في حفظ نفسه وورثك
أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقاً
ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً وعند ذلك يهلك : والحق أن
الخواص الأقوياء في الدين والدين لا تليهم الدنيا ولا يستقزهم الطمع
ولا تأخذهم في الله لومة لائم : لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات . وأن
الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا . وأما القضاء فحكمه حكم
الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء : ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي
على القضاء إلا بعداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل التعلقين بهم
إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لمزلوه أو لم يطيعوه : فليس له أن يتقلد
القضاء وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل
عندنا مخصصاً له في الإهمال أصلاً : بل إذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي
أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله . وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في
الأكثر أضر عليه : لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلمها تستلذ الخير وتعمل
إليه . وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال ، وهذه الأمور لا يمكن
الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات ، فهو موكول إلى اجتهد القلب لينظر فيه
لدينه ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، ثم قد يقع غرور للجاهل فيمسك
المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ، ولا خلاف أن تفرقة المال في المباحات فضلاً
عن الصدقات أفضل من إمساكه ، وللواعظ الصادق المخلص في وعظه غير
مرید رياء الناس علامات إحداها أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً
وأعز منه علماً والناس له أشد قبولاً ، فرح به ولم يحسده (ولا بأس

بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه (والأخرى أن الأكاير إذا
حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه ، والأخرى أن لا يحب
اتباع الناس له في الطريق ولشي خلفه في الأسواق الخ .

٧٧ — مراقبة الله في التوبة : ويقول الغزالي إن التوبة عبارة عن معنى
ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : أولها العلم وهو معرفة عظم ضرر
الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كلى محبوب . فإذا عرف ذلك
معرفة محقة ييقن غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب وتأسف
بسبب قوات المحبوب بفعله (يسمى ندماً) وتتمكن مرارة تلك الذنوب
في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة (دائمة)
فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعثت منه في القلب حالة أخرى
تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال (بالترك لكل محذور هو
ملائس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال) وبالماضى (بتلافى
ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر) وبالمستقبل (بالعزم على ترك
الذنب القوي المحبوب إلى آخر العمر بأن يعقد مع الله عقداً مؤكداً
ويعاهده بعيد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها) .
وكثيراً ما يتعلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كأنه مقدمة
والترك كأنه ثمرة .

٧٨ — والتوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة (العلم والندم والترك) ،
وهي واجبة على الفور ، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات هو واجب على الفور .
ووجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينقك عنه أحد ألبتة .
ويقول الغزالي إن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى « وتوبوا
إلى الله جميعاً أيها المؤمنون ، لعلمكم تفلحون » فعم الخطاب ، ونور البصرة
أيضاً يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله للقرب إلى
الشیطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، وإذا كانت التبهوات تكمل في
الصبا والشباب قبل كمال العقل (إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة

الأربعين ، وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين)
 فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس والف
 وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل شيئاً فشيئاً على
 التدريج فان لم يقو ولم يكمل ساعد مملكة القلب للشيطان ، وإن كمل العقل
 وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ورد الطبع على
 سبيل القهر إلى العبادة . فالغزالي يرى أن كل بشر لا يخلو عن معصية إما
 بحوارجه وإما بالهوى بالذنوب بقلبه وإما بسواس الشيطان بإيراد الخواطر
 المتفرقة المذهلة عن ذكر الله وإما بغفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله ،
 ويقول إنه « لا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون
 في المقادير ، فأما الأصل فلا يدمنه ، فإذا بلغ كافرأ فعليه التوبة من جهله وكفره
 وإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبوه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته
 بتفهم معنى الإسلام . فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والاسترسال
 وراء الشهوات من غير حصارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في النعم
 والاطلاق والافتكالك والاسترسال » .

ويقول « ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم
 الموت قال إني تبت الآن » وإنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم
 يتوبون من قريب » (أي عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتقدم عليها ويعجزوا
 أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو) .
 ومن ترك المبادرة بالتسوية كان بين خطرتين عظيمين أحدهما أن تتراكم
 الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو . والثاني
 أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو » .

ويقول الغزالي إن التوبة إذا استجمعت شرائطها (بأن كانت صحيحة
 نصوحاً خالية من الشوائب) فهي مقبولة لا محالة ، لأن كل قلب سليم
 مقبول عند الله ، والقلب خلق سليماً في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة
 وإنما تفوته السلامة بكدورة توهق وجهه من شجرة الذنوب وظلمتها ، و نار

الدم تحرق تلك العبرة ، ونور الحسنه يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة !
ولا يعنى الغزالي من وجوب قبول التوبة الصحيحة على الله إلا ما يريد
القائل إن العطشان إذا شرب وجب زوال العطش ، وليس في شيء من
ذلك ما يريد العثرة بالاجاب على الله تعالى ، أى يرى أن الله خلق الطاعة
مكفرة للمعصية والحسنه ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلًا للعطش ، والقدرة
متسعة بخلافه لو سبقت به السيئة . فلا واجب على الله تعالى ، ولكن ما سبقت
به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة .

٧٩ — الصفات والكبائر : والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر
الله تعالى في ترك أو فعل ، وتنقسم الذنوب إلى صفات وكبائر . ويرى
الغزالي أن الكبائر على ثلاث مراتب :

(١) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر (ومنه
الشرك بالله وكفر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته) ويليه الاصرار
على معصية الله وتناول الدين بالاغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في
العاصي وتسهيل أسباب الجراءة على الله . وبعضها أشد من بعض وتفاوتها
على حسب تفاوت الجليل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله
وشرائعه وأوامره ونواهيه .

(٢) ما يسد باب حياة النفوس إذ يبقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل
المعرفة ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر . لأن
ذلك يصد من القصد (التوصل بالدنيا الآخرة بمعرفة الله تعالى) وهذا
يصد وسيلة القصد ، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى
إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ، ويقع في هذه الرتبة
تحريم الزنا والواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء
الشهوات انقطع النسل ، ودفع الوجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا
فانه يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر ، ويحرك من الأسباب
ما يكاد يفضى إلى القتال (ولذا ينبغي أن يكون في الرتبة دون القتل لأنه

يفوت تمييز الأنساب ، وينبغي أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرة .

(٣) ما يتعلق بالأموال فإنها معاش الخلق فينبغي أن تحفظ لتبقى بينائها النفوس ، ولذا إذا جرى تناولها بطريق يمس التدارك له ، فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر (كالسرقة وأكل مال اليتيم وتقويتها بشهادة الزور وأخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس — الخفية التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقاً فتفمس صاحبها في النار) وأما أن أكل الربا (وليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع) وأكل دافق بالخيانة أو الغصب أو الظلم (كأخراج الناس من مساكنهم أو بلادهم أو أوطانهم) من الكبائر ، ففيه نظر ، وذلك واقع في مظنة الشك أنه غير داخل تحت الكبائر (لكن يعتبر ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم ، من الكبائر أن يأكل الربا وهو يعلم) .

أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ، فهو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما شرب ماء نجس . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض . والأعراض دون الأموال في الرتبة ، وتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، فهو يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على الشهادة غيره ، فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظيمة بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره (ويراد بالسحر كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة) . وأما الفرار من الإحلف وعقوق الوالدين ، فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف (وحجة عقوق الوالدين أن يقبلا عليه في حق فلا يبر قسمتهما ، وإن سألاه حاجة فلا يعطيما أو يسأله فيضر بهما ويخوطان فلا يطعمهما) .

٨٠ - ويقول الغزالي إن الكبير والصغير من المضافات : وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه (فالمضافة مع الأجنبية مثلاً أي أصابتها بكل شيء إلا المسيس ، كبيرة بالإضافة إلى النظرة صغيرة بالإضافة إلى الزنا) ويرى مع هذا أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والمواظبة (لأن القليل من السيئات إذا دام ، عظم تأثيره في إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر - كالمرادة والمقدمات في الزنا والمشاحنة السابقة والمعادة في القتل : ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود : ربما كان العقوب فيها أرجى من صغيرة واطب الإنسان عليها عمره) ، واستصغار الذنب (لأنه كلما استعظمه من نفسه ، صغر عند الله تعالى ، وكلما استصغره ، كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن تفور القلب عنه وكراهته له وذلك يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الألف به ، ولذلك لا يؤاخذ بما جرى عليه في الغفلة) ، والسرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد المتكبر من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، والتهاون بستر الله عليه وحمله عنه وإسهاله إياه ، وإتيانه الذنب وإظهاره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره (لأن ذلك يحريك لرغبة الشر فيمن أسعته ذنبه أو أشهده فعله ، ويتفاحش الأمر إذا رغب الغير فيه وحمله عليه وهياً أسبابه له) ، وكذلك يكبر الذنب - فلا تكفره الصلوات الخمس - إذا كان المذنب عادلاً يقتدى به ، وفعله بحيث يرى ذلك منه .

٨١ - شروط صحة التوبة : ويقول الغزالي إن شروط صحة التوبة فيما يتعلق بالماضي أن يرد فـكـره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش فيه عما مضى من عمره يوماً يوماً ، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها (فيؤديها) ، وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها فينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد (كسرّب خمر مثلاً) فالتوبة عنها بالندم والتحصن عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث

الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من
الحسنات بقدر تلك السيئات (فيكفر شرب الخمر مثلاً بالتصدق بشراب
حلال هو أطيب منه وأحب إليه) . وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما
المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض بعلاج يضده فكل ظلمة ارتفعت
إلى القلوب بمعصية فلا يحويها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها . فلذلك
ينبغي أن تمنح كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها . وهذا التدرج
والتحقيق من التغلف في طريق الحق . فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر
من أن يواظب على نوع واحد من العبادات . وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً
في الحق . وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى
فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً . فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه
بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي
أضدادها (فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم) . ويكفر غصب أموالهم
بالتصدق بمالكه الحلال . ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم
بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أفراده وأمثاله .
ويكفر قتل النفوس باعتناق الرقاب الخ .) ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجمه ولم
يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد . فليستحلبهم أو ليؤد حقوقيهم إن قدر
وإلا فليكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته
وتوضع في موازين أرباب الظالم !

٨٢ - وظلمة المعصية تمنح عن القلب بشيئين : حرفة الندم وشدة
المجاهدة بالترك في المستقبل . فإذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن
الزروع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه لزوع إليه وهو يجاهد بها ويغلبها
فأيهما أفضل ؟ يقول الغزالي إن الذي انقطع لزوع نفسه له حالتان :
(١) أن يكون انقطاع لزوعه إليها بقصور في نفس الشهوة فقط .
فالمجاهد أفضل من هذا . إذ تركه بالمجاهدة دليل قاطع على قوة النفس
واليقين والدين .

(٢) أن يكون بطلان الزرع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأديت بأدب الشرع فلا تخرج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها ، فهذا أعلى رتبة من المجاهد القامى طيجان الشهوة وقمعها . لأن الجهاد ليس مقصوداً لعينه فإذا فبرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ، وتصور الفتح وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدى . والغافل لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . وشرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعم في الآخرة لمزيد رغبته . ولكن إن كان شاباً فينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط ، ولا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخمر والولدان والرحيق والآل ، والياقوت والرجاز والدر والفسك والبسط والحرير والرياض والقصور ، فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة ، وكذلك تذكر الذنوب قد يكون محرّكاً للشهوة ، فالمبتدى أيضاً قد يستغربه فيكون النسيان أفضل .

٨٣ - ويقول الغزالي : إن التائب في التوبة على أربع طبقات :

(١) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره . ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة (وهي أعلى رتبة) .

(٢) نائب سالك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها . إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعثره لا عن عمد وتحريد قصد . ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها . ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعثره بها . وهذه رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى (وهي أغلب أحوال التائبين) .

(٣) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلب الشهوة في بعض

الذنوب ، فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهرها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القصد والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود (في حالة قضاء الشهوة) لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها ، وعند الفراغ يتندم لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم ، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو ، فعسى الله أن يتوب عليه .

(٤) أن يتوب ويحرق مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصرين يخاف عليه من سوء الخاتمة ، فان ختم له بالسوء شقي ، وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه .

٨٤ — والاصرار على الذنوب لا يكون لفقد الإيمان (إلا إذا كان كافراً) ، بل يكون لضعفه ، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة . ولكن يرى الغزالي أن سبب وقوعه في الذنب أمور ، نرى ذكرها مع علاجها الذي رآه لها :

(١) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جعلت متأثرة بالحاضر : وعلاج هذا السبب هو الفكر بأن يقرر على نفسه ان غداً لناظره قريب والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً ، ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعبد في الحال لخوف أمر في الاستقبال .

(٢) أن الشهوات الباعثة على الذنوب ناجزة وهي في الحال ، وفدقوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والألف ، والتروع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس :

وعلاج هذا السبب هو معالجة اللذة الغالبة عليه وتكليف نفسه تركها

لنعم بنعم الآخرة الدائم الخالي من الشوائب .

(٣) أنه مامن مذهب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة
وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره ، إلا أن طول الأمل
غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير :

وعلاج التسويف في التوبة هو بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار
من التسويف . لأن السوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء ، فلمعه لا يبقى
وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم ، لأن الشهوة ليست
تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تدأ كد بالإعتياد .

(٤) أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب
العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها ، فهو يذنب ويتنظر العفو عنها اتكالا
على فضل الله تعالى :

وعلاج هذا السبب بأن يعلم أن انتظار عفو الله انتظار امر ممكن
ولكنه قد لا يمكن ولا يكون .

أما إذا كان المذنب كافراً ، فيرى الغزالي أن يعالج الكفر والشك
بالأسباب التي تعرفه صدق الرسل ويعلم قريب يليق بحمد عقله إذ ليس في
العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا في
كيفية . فإن صدقوا فقد أشرف على عذاب يبق أبداً الآباد (من نار للبدن
والم في القلب . أي نار الله الموقدة التي تظلمع على الأفتدة) وإن كذبوا
فلا يفوته إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره ، فلا يبقى له توقف
إن كان عاقلاً مع هذا الفكر .

٨٥ — مراقبة الله في الرجاء والخوف : ويقول الغزالي إن الرجاء هو
ارتياح القلب (ولذته) لا انتظار محبوب (متردد فيه غير مقطوع به) تمهدت
جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد . ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت
اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسادات . والرجاء باعث
بطريق الرغبة بضاده اليأس (الذي يمنع من التعبد ويصرف عن العمل)

فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأصمالة والمواظبة على الطاعات كبعضها
تقلب الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم
بمناجاته ، فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول
في حضيض الغرور والتمني (لأن الرجاء انتظار لأجل حصول أكثر
أسبابه ، فان كان الانتظار مع انحراف أسبابه واضطرابها فيسمى غروراً
وحقاً ، وإن لم تسكن الأسباب معلومة الانتفاء أي إن كان انتظاراً من
غير سبب فيسمى تمنياً) .

٨٦ — والخوف هو تألم القلب واختراقه بسبب توقع مكروه في
الاستقبال ، ويقول الغزالي إن المحمود منه هو الاعتدال والوسط ، فأما
القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رفة النساء وهو يخاف بالبال عند سماع
آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب
هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى العفة ، فهذا خرف
قاصر قليل النفع ، وأما المفرط فانه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى
يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل ، وقد
يخرج الخوف أيضاً إلى الرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل
والثبوت ، فالمراد من الخوف هو الحيل على العمل ولولاه لما كان الخوف
كلاماً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأة الجليل (لأنه ليس يدري عاقبة أمره
ولو عرف لم يكن خائفاً لأن المخوف هو الذي يتردد فيه) والعجز (لأنه
متعرض للحدود لا يقدر على دفعه) فإذا هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي
وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف
الله تعالى به ، وفائدة الخوف الحذر والنورع والتقوى والمجاهدة والعبادة
والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي
الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل ما يقدر في هذه الأسباب فهو
مذموم ، وأفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى ، فكل ما أبطل
العمل أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسار ونقصان

بالإضافة إلى أمور . وإن كان بعض أفساسها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخرى .

٨٧ - ويقول الغزالي إن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والمكروه إما أن يكون مكروها في ذاته (كالنار) وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه (كالذي يغلب عليه خوف الموت قبل التوبة أو نقضها ونسكت العهد أو ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو زوال رقة القلب أو الليل عن الاستقامة أو استيلاء العادة في اتباع الشهوة المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتسكل عليها أو البطر بكثرة نعم الله عليه أو الاشتغال عن الله بغير الله أو الاستدراج بتواتر النعم أو انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب أو تبعات الناس عنده في الفية والحياة والغش والضمير السوء أو ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو تعجيل العقوبة في الدنيا والاقتضاح قبل الموت أو الاغترار بخارف الدنيا أو إطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل) . فبذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الخذر مما يفضي إلى المخوف . فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على النظام عنها . والذي يخاف من إطلاع الله تعالى على سريره . . يشتغل بتطهير قلبه عن الوسوس وهكذا إلى بقية الأقسام . ويقول الغزالي إن الخوف لا يتصور أن ينفك مؤمن عنه وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بسبب ضعف معرفته وإيمانه . والرجاء والخوف متلازمان لأن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته . ويجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه . وهذا لأن من شروط الرجاء والخوف تعلقيهما بما هو مشكوك فيه إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف . فإذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة . فتقدير وجوده يروح القلب

وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجب الخوف ، والتقدير ان يتقابلان
لا محالة إذا كان ذلك الأمر ينتظر مشكوكا فيه ، وأحد طرفي الشكوك
قد يرجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون
ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب
قوى الرجاء وخنى الخوف بالاضافة إليه وكذا بالعكس . وعلى كل حال
فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى « ويدعوننا رغبا ورهبا » .

٨٨ - ويقول الغزالي إن الخوف من الله تعالى على مقامين :

(١) الخوف من عذابه : وهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل
الإيمان بالجنة والنار وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية . وضعفه بسبب
الغفلة وسبب ضعف الإيمان^(١) .

(٢) الخوف من الله : وهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من
صفاته ما يقتضى الخوف ، الطلوع على سر قوله « ويحذركم الله نفسه » وقوله
« اتقوا الله حق تقاته » (ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية
ولسكن هو بمجرد التقليد لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويذول
على قرب) ومن عرف الله تعالى خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج لجلب
الخوف ، لأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل
واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له .
تخلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار
وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا . ولذا يرى الغزالي أنه
ليس للعتظم في أمواج القدر إلا التسليم فيه واستقرار . خفى السابقة من
جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح « فمن يسر له أسباب الشر
وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له

(١) وإنما نزول الغفلة بالبد كبير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة (يوم يفتح
في الصور) وأنساب العذاب في الآخرة (من طول يوم القيامة وصفة العرق والمساءلة
والظلم وصفات النار) وبالنظر إلى الخائفين ومعالجتهم . ومشاهدة أحوالهم أو سماعها .

على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة إذ كل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالسكينة عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقيلاً ، كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثقاً به . ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان نيران الخوف اشعالا ولا يمكنها من الانطفاء .

٨٩ — ويقول الغزالي إن سوء الخاتمة على رتبتي أحدهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة فإن يغلب على القلب عند الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود . الثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره . وأما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما البدعة بأن يمتدح الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه إما برأيه ومعقوله ونظيره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر . وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه . ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً إذ حال الموت كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور . فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه ، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشك فيها . فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم الله له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله ، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق .

وكل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطار . وأما السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ثم استيلا . حب الدنيا على القلب ، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو فيسود فلا يزال يعطى ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً ، فإذا جاءت سكرات الموت استشعر فراق الدنيا (الغالب حبها على قلبه) فيتألم . ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما فتر عليه من ثلوث وكراهة ذلك من حيث أنه من الله ، فيخشى أن يشور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، فإذا اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً .

وأما المطامعة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضاً سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي ، وذلك لأن مقارفة المعاصي سبباً غلبة الشهوة ورمسوخها في القلب بكثرة الألف والعادة . وجميع ما ألقاه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند مبله ، فإن كان مبله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان مبله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت . فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى .

افصل السادس

التفكر في خلق الله

٩٠ — معنى التفكير ومجاريه : يقول الغزالي إن معنى التفكير هو إحضار معرفتين في القلب (مثل أن الأبقى أولى بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا) ليستثمر منهما معرفة ثالثة (وهي في مثالنا أن الآخرة أولى بالإيثار) فإحضار المعرفتين السابقتين للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً (غير أن التدبر والتأمل والتفكير عبارات مترادفة على معنى واحد ، والتذكر والاعتبار والنظر مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحداً ، فالاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة ، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا التوقف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر وفائدته تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تتمحي عنه ، وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة ، وفائدته تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة ، « فاصل حقيقة التفكير يرجع إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرة الخاصة بالعلم لا غير ، فإذا حصل العلم في القلب ، وإذا تغير حال القلب ، تغيرت أعمال الجوارح . . . فالتفكير إذاً هو البدء والفتاح للخيرات كلها . . . وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، ولذا قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

٩١ — ويقول الغزالي إن التفكير قد يجري في أمر يتعلق بالدين (العاملة بين العبد وبين الرب) وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين ، وجميع أفكار العبد (الدينية) إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود

وصفاته وأفعاله ، ومحبة الله تعالى ينبغي أن لا يعدو نظره وتفكيره
محبوبه ، وتفكره محصور في أقسام :

(١) تفكر في صفات نفسه ليميز المحبوب منها (من المحبوب) عن
المكروه ، وكل ما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات
والعاصي (التي تتعلق بالبدن وأعضائه) وإلى باطن كالصفات النجيات
والهلكات التي محلها القلب ، ويجب في كل واحد من السكاره ، التفكر في ثلاثة
أمور : التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فإن كان مكروها
فما طريق الاحتراز عنه ، وهل هو متصف بهذا المكروه في الحال فيتركه
أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال
فيحتاج إلى تداركه (وبعكس ذلك يكون التفكر في المحبوبات ليعمر القلب
بالأخلاق الحمودة ويتره الباطن والظاهر) .

(٢) التفكر في جلال الله وفيه مقامان : الفكر في ذاته وصفاته ومعاني
أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى
ولا تفكروا في ذات الله (لأن العقول تتجبر فيه ، فلا يطبق مد البصر
إليه إلا الصديقون ثم لا يطبقون دوام النظر) أما النظر الثاني فهو النظر
في أفعاله وبدائع أمره في خلقه .

٩٣ - وكل ما في الوجود مما سوى الله فهو فعله وخلقته . وكل ذرة
من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر
بها حكمته وقدرته وجلاله وعظمته ، وقد ذكر الغزالي من ذلك :

(١) خلق الإنسان من نقطة فقد قال تعالى « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »
وقال : « قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ؟ ! من نقطة خلقه
فقدره : ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره » . ويقول
الغزالي « أنت ترى النقطة القذرة كانت معدومة تخلقها خالقيا في الأصلاب
والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن
تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها للتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام

في أركانها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها
 وأعصابها وجعلها سمعة بصيرة عالة ناطقة ، وخلق لها الظفر أساساً لبدنها
 والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ، ففتح العينين ورتب
 طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ثم حماها بالأنفان لتسترها وتحفظها
 ونصقلها وتدفع الأقداء عنها ثم أظفر في مقدار عدسة منها صورة السموات
 مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فيؤثر ينظر إليها ، ثم شق أذنيه وأودعها
 ماء مرأً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وجو طيا بصدفة الأذن لتجمع
 الصوت فترده إلى صاخها ولتحس بديب الهوام إليها وجعل فيها تحريكات
 واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم
 صاحبها ، ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه
 وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامحه وأغذيته
 وليستشق بمنفذ المنخرين روح الهواء ، غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه ،
 وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماً ومعباً في القلب ، وزين الفم
 بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فاحكم أصولها وحدد
 رؤسها وببيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب
 كأنها الدر المنظوم ، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم
 فتسد منفذه ولتحميها حروف الكلام ، وخلق الخنجره وهيأها لخروج
 الصوت ، وخلق اللسان قدرة للمحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج
 مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق
 الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والنعومة وصلابة
 الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا تشابه
 صوتان . . . ، ثم زين الرأس بالشعر والأصداع وزين الوجه باللحية
 والحاجبين وزين الحاجب برفقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين
 بالأهداب ، ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص
 فسخر المعدة لتضج الغذاء والسكبد لإحالة إلى دم توصله العروق إلى سائر

أطراف البدن) يخدمها الطحال يجذب السوداء عنها والراة يجذب الصفراء
والكلية يجذب النائية إذ تخدمها المثانة بقبول الماء ثم تخرجه في طريق
الإحليل . . . ثم خلق اليدين وطولها لتمسك إلى المقاصد ، وعرض السكف
وقسم الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في
جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع . . . ثم خلق الأظافر
على رؤسها لينة الأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع . . . ثم خلق
هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث . . . ولما ضاق الرحم
عن الصبي هداه السبل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب
التغذية . . . ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء هداه إلى التقام الثدي ، ثم لما
كان بدنه ضعيفاً لا يحتمل إلا غذية الكثيفة دبر له في خلق اللبن اللطيف
واستخرجه من بين الفرت والدم سائفاً خالصاً ، وخلق الثديين ، وجمع
فيهما اللبن وأثبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح
في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد أن تدريجاً فإن
الطفل لا يطبق منه إلا القليل . وأخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين
حيث يحتاج إلى طعام غليظ يحتاج إلى المضغ والطحن . . . وأخرج تلك
اللثة اللينة ، ثم حتى قلوب الوالدين عليه بالقيام بتدبيره في الوقت الذي
كان عاجزاً عن تدبير نفسه . . .

(٢) ومن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً خفا
وجعلها ذلولاً تمشوا في مناكبها وأرسي فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من
أن تميد وإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنتجت عجائب النبات
وأخرجت منها أصناف الحيوانات ، وأودع المياه تحتها فنجرت العيون وأسأل
الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب
السكر ماء رقيقاً عذبة صافية زلالاً وجعل به كل شيء حتى فأخرج به
فنون الأشجار والنبات مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات
والأريج والطبايع والتعبد والمنافع ، فهذا يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى

وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يصفى الدم وهذا ينوم وهذا ينعذب .
وبعضه يستنبت بيث البذور في الأرض وبعضه يفرس الأغصان وبعضه
يركب في الشجر .

(٣) ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والعادن الحاسنة
من الأرض .

(٤) ومن آياته أصناف الحيوانات . وانقسامها إلى ما يمشي وإلى ما يمشي
وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على الرحلين وإلى ما يمشي على أربع وعلى عشر
وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات . ثم انقسامها في النافع والعور
والأشكال والأخلاق والطباع (وتأمل في عجائب الخلة أو النحلة
أو العسكبيوت وهي من صفات الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها
وفي النما لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذوها في هندسة بيتها وفي
هدايتها إلى حاجتها) .

(٥) ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض وسعتها
وعجائب ما فيها من الحيوانات والجواهر (وتأمل في خلق الله للؤلؤ
وتدويره في صدفه تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور
تحت الماء . وتأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر
وتستخرج منه) .

(٦) ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب
الأرض . ولا يدرك بحس النفس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين
شخصه وجملته (وانظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والبروق
والرعود والأمطار والثلوج والتهب والصواعق) .

(٧) ومن آياته ملكوت السماء وما فيها من السكواكب إذ قال تعالى
« أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها » . فانظر فيها وفي
كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف
مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركاتها

ومن غير تعب في سيرها بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى حتى السجل للكتب ، وتدير عدد كواكبها واختلاف ألوانها ثم انظر كيفية أشكالها ، ثم انظر إلى مسير الشمس في فللكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، وانظر ايلاج الله الليل في النهار والنهار في الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وانظر إلى امالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف ، وقد قال تعالى « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، آيات لا ولي إلاّ له » .

ويقول الغزالي بعد كلامه عن فوائد السفر وأنه نوع حركة ومخالطة ، وأن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحصين الخلق وتهذيبه وأنه مسمى السفر سفرأ إلا لأنه يسفر عن الأخلاق وأن في مشاهدة آيات الله في أرضه فوائد للمستبصر أنه « ما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها ، وأنواع شهادات لصانعها بالتقدس هي تسيبها ، ولكن لا يفقهون تسيبها لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع انظاھر إلى فضاء سمع الباطن ، ومن ركازة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال ، ومن يسافر ليستقرى هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجادات ، لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نعمات التسيبجات من آحاد الذرات »

٣٩ - ذكر الموت وما بعده : ويقول الغزالي إن طول الأمل له سببان أحدهما الجبل (إذ قد يعول الإنسان على شبابه فيستبعد قرب الموت) والآخر حب الدنيا لأنه إذا أنس بها وبشهوواتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع من التفكير في الموت فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده « فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من

مال وأهل ودار وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه ما كفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلجأ عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه « ، فلا يزال يسوف ويؤخر على التدرج يوما بعد يوم إلى أن تحطفه المنية في وقت لا يحاسبه فتطول عند ذلك حسرته .

٩٤ — ويقول الغزالي إن الألم في سكرات الموت شديد^(١) . والقياس الذي يشهد له هو أن كل عضو لا روح فيه لا يحس بالألم . فإذا كان فيه الروح فالدرك للألم هو الروح . والثلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم « فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تنفوس في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحمسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإتاما تصيب الموضع الذي منه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فالألم التزع بهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه « لأن المزروع مجذوب من كل عرق وعصب وجزء ومفصل ومن أصل كل شفرة وبشرة من الفرق إلى القدم حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض . ولذا انقطع صوت الميت وصياحه لأن السكرب قد بالغ فيه وتضاعف على قلبه وبلغ كل موضع منه فهد كل قوة

(١) راجع مع ذلك آراء مضافاً لذلك لأن مسكويه في كتاب وهي الموت يعود على قراءته . وراجع مقال أيس في الموت ما يخالف لستر هوارد يرى في حجة المختار عند إيريل سنة ١٩١٧ . إذ يقول إن الموت خبر من الألم ، وهكذا يقول الأطباء وهكذا يقول من شاركوا غمرات الموت وهكذا يقول الراحلون وهم في سكرات الموت وهكذا يقول من مات ثم أرنه حياً ، وليس ذلك إنكاراً لما يسبق الموت من الآلام ، كلا فإن الحسرة الحقيقية التي تصعب التهاب الزمة ، والتهفئة الحادة التي تكون في العرق ، وكل الآلام التي تأتي مع الأمراض القاتلة والمزوح الهلكة ، إنما هي شغل من الحياة لا من الموت !

وضعف كل جارحة . أما العقل فقد شوشه وأما اللسان فقد أبكه وأما
الاطراف فقد ضعفها . ويرد لو قدر على الاستراحة بالالين والصباح .
فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزاع الروح وجذبها خوارا وخرعة من
خلقه وصدره وقد تغير لونه وأريد حتى كأنه ظهر فيه الثراب الذي هو
أصل فطرته . وترفع الحدفان إلى أعلى أجفانه وتقلص الشفتان وتقلص
اللسان إلى أصله وترفع الألتبان إلى أعلى موضعهما وتخضر أنامله . ثم
يموت كل عضو من أعضائه تدريجيا فتبرد أولا قدماه ثم ساقيه ثم ثناده .
حتى يبلغ إلى الخلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه
باب التوبة وتبدل له صفحة وجه ملك الموت — جميلة الصورة للمطيع .
قبيحة للعاصي وإن تخرج روحه ما لم يسمع نعمة ملك الموت بإحدى البشريين
إما بالجنة أو النار . ولذا كان المحبوب عند الموت من صورة المختصر
هو الهدوء والسكون . ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة . ومن قلبه
أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

٩٥ — ومعنى الموت تغير حال فقط إذ الروح باقية بعد مفارقة الجسد
إما معذبة وإما منعمة . ويقول الغزالي إن معنى مفارقتها للجسد انقطاع
تصرفها عنه بخروجه عن طاعتها . فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها
حتى أنها لتبغض باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء
بالقلب . والقلب هنا عبارة عن الروح . والروح تعلم الأشياء بنفسها
من غير آلة . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معيا بعد مفارقة
الجسد . وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد
الروح إلى الجسد . ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر . ولا يبعد
أن تؤخر إلى يوم البعث . والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عبادته .
وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه
وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها . فتسكون الروح العالة
العاقلة الدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها .

والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها . وكل الأعضاء آلات والروح
هي المستعملة لها . وهما يبطلان تصرفاً في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات
ولا يبطل منها الأفراح والغموم ولا يبطل منها قبولها للألام والذات . والإنسان
بالحقيقة هو النفس المدرك للعلوم والألام والذات وذلك لا يموت . فالموت
زمانة مطلقة في الأعضاء كلها . وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية .
وتغير حاله من جهتين إحداهما أنه سلبت منه جميع أعضائه وسلب منه أهله
وولده وأقاربه وسائر معارفه وماله . إلى علم آخر لا يناسب هذا العالم .
والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة كما قد
ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً في النوم . وأول ما ينكشف له
ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته (وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب
مطوى في سر قلبه . وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا) . . .
وينكشف للمؤمن عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا
بالإضافة إليه كالسجن والضيق .

الباب الثاني

ما بينك وبين الناس

(المعاشرة والألفة والصحبة)

« عرفت رومي روحك حين كلمت نفسي نفسك ! إن الأرواح لها أنفاس كأفان الأبدان »
وإن المؤمنين يعرف بعضهم بعضاً ويتعاطون بروح الله وإن لم يتفقوا ، يتعارفون ويتكلمون
وإن أت بهم الدار وتعرفت بهم النازل » (أوس بن عامر القرني)

٩٦ — فوائد المخالطة : إن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد
بالاستماعة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة ، وذكر الغزالي لذلك سبع
فوائد نجمعها فيما يلي :

(١) التعليم والتعلم (إذ لا يتصور ذلك إلا بالمخالطة) ، والنفع (بأن
ينفع الناس بحاله أو يبدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسنة) والانتفاع
(بالكسب والمعاملة) ، والتجارب والممارسة (ومن أهمها أن يحرب نفسه
وأخلاقه وصفات باطنه ، وذلك لا يقدر عليه في الخلوة) .

(٢) التأديب (بالارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم
كسراً للنفس وقهراً للشهوات) والتأديب (بأن يروض غيره بأن يدعوهم إلى
الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) ونيل الثواب وإفلاته (بحضور
الجنائز وعبادة الرضى والتمنئة على النعم وحضور العيدين وإدخال السرور
على قلوب المسلمين ، هذا على وجوب حضور الجمعة والجماعة في سائر
الصلوات إذ لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر) والتواضع
(إذ لا يقدر عليه في الوحدة) .

(٣) الاستئناس والإيناس : وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال
(فتؤانسة من لا تجوز مؤانسته حرام ، ويستحب الأُنس بالملازمين لسمت

التقوى . وإذا كان الغرض منه ترويح القلب لتيسير دواعي النشاط في العبادة . لأن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح .

٩٧ -- ولكن مع ذلك يرى الغزالي للعزلة ست فوائد خلاصتها :
التفرغ للعبادة إذ قال الله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »
(ويدخل فيها الفكر والاستئناس بمناجياته والاشتغال باكتشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملسكوت السموات والأرض) والتخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً ، والخلاص من شر الناس وأن ينقطع طمعهم عنك (إذ رضى الناس غاية لا تدرك ، ومن همم الناس كلهم بالحرماني رضوا عنه كلهم ولو خضعوا مستوحشوا) ، وينقطع طمعك عنهم . والخلاص من مشاهدة القلاء والحق وأخلاقهم (إذ يسعى جالينوس النظر إليهم هي الروح) .

ولكن الغزالي مع هذا يقول إن « الحكم على العزلة مطلقاً بالانفضال نقياً وإثباتاً خطأ ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخلطة وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفئات بسبب مخالطته ، ويقاس الفائد بالخاص فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، ولذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة » .

٩٨ -- آفات اللسان : وأكثر ما يسيء للمعاشرة ما يسميه الغزالي آفات اللسان ، وهي فيما بين الناس :

(١) الرأ والجدال : وحدة الرأ هو كل طعن في كلام الغير (لتحقيقه وإظهار الكياسة) بإظهار خلل فيه إما في اللفظ أو في المعنى أو في قصد التشكك (وزكته يكون بترك الإنكار والاعتراض ، والتصديق بكل كلام سمعته إن كان حقاً والسكوت عنه إن كان كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين) . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذهب وتقريرها . والخصومة لجأج مذموم في الكلام (بالخصام — ابتداء أو اعتراضاً — بالباطل أو بغير علم) ليستوفى به مال أو حق مقصود (ولكن لا يحرم

على الظلوم أن ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد و إصراف ومن غير قصد عناد وإيذاء ، والأولى تركه ، لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر وهي نوعر الصدر .

(٢) الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن : وهو منتهى عنه إذ الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة (لاسيما في ألفاظ الواقع وما يتعلق به) بالعبارات الصريحة (مع أنه يمكن أن يكنى عليها وبذل عليها بالرموز) والشتم والتعير هو ذكر عبارات يستقبح ذكرها . واللعن هو الطرد والإبعاد من الله تعالى (وهو لا يجوز إلا مع الأجناس المروفين بأوصافهم البعيدة منه — كالظالمين والكافرين والفاسقين لعنة الله عليهم — دون الأشخاص العيينين) وتقرب من اللعن الداء على الإنسان (حتى الظالم) بالنشر .

(٣) المزاح : والمنتهى عنه الإفراط فيه ، لأنه يورث كثرة الضحك التي تبيت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار . وقد كان النبي الكريم يمزح ولا يقول إلا حقا . وكان في مزاحه يتيسر فتكشف فيه سنة ولا يسمع له صوت . أما الاستهزاء وهي الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه (بالمحاكاة في الفعل والقول أو بالإشارة والإيماء) حرام مهما كانت مؤذية . وأما من جعل نفسه مسخرة وريعا فرح أن يسخر به فالمسخرة في حقه من جملة المزاح .

(٤) إفشاء المر : وهو حوام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار .

(٥) الوعد الكاذب : ومن وعد وهو على عزم الخلف . أو ترك الوفاء من غير عذر فهو منافق . فان عزم على الوفاء فمن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا .

(٦) الكذب في القول واليمين : وبه يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره . ويرى الغزالي أن

« الكلام وسيلة للمقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً ، فالكذب فيه حرام . وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق . فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصد مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً » .

ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب . وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما . وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب مباح لضرورة . فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه . وإذا اضطر الإنسان إلى الكذب فالتعريض أهون (ومثاله إذا طلبك من تكره أن تخرج إليه وأنت في الدار ، فقلت للخادم قل له اطلبه في مكان كذا . أما إذا قلت له ليس ههنا فكذب) . والتعريض مباح بغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمزاح بقوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة مجور . وأما الكذب الصريح (كتغريب شخص بأن امرأة قد رغبت في تزويجه) فإن كان فيه إيذاء قلب فهو حرام . وإن لم يكن إلا لطايفه فينقص من درجة إيمانه . ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في اللباقة (كقوله طلبتك مائة مرة) فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً ، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد متلبها في السكثرة لا يأثم ، وإن لم تبلغ مائة . ومما يعتاد الكذب فيه أن يقال كل الطعام فيقول لا أشبهه ، وهو حرام إن لم يكن فيه غرض صحيح .

(٧) الغيبة : وهي أن تذكر أخاك بما يكرهه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسيبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه . وهي حرام لأن فيها تفهيم الغير نقصان شخص معين — حي أو ميت — فالتعريض به كالصريح والفعل فيه كالقول والإشارة والإيحاء ، والتمز والكتابة والحركة . وكذلك يحرم سوء الظن (أي عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء) .

أما الخواطر والشك وحديث النفس فيعني عنها (لأن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك ببيان (تشاهده بعينك أو تسمعه بأذنك) لا يقبل التأويل . وأما عقد سوء الظن أن يتغير القلب عما كان فينفر عنه نفوراً ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه والاعتماد بسببه (لذلك إذا خطر لك خاطر سوء على أخيك فينبغي أن تزيد في مراعاته) وأما إذا أخبرك عدل فلا تصدقه ولا تكذبه (كأنه لم ينكشف لك شيء) . وينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعت فتتطرق التهمة بسببه ، وكذلك إن كان من عاداته ذكر مساوىء الناس (لأنه في الحقيقة ليس بعدل) . ومن ثمرات سوء الظن التجسس (للتحقيق) .

والرخص في ذكر مساوىء الغير أغراض صحيحة في الشرع لا يمكن التوصل إليها إلا به وهي ستة أمور : التظلم والاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح والاستفتاء ، (كأن يقول ظلمي أخى فكيف طريق في الخلاص ، والأسلم التعريض بأن يقول ما فوالك في رجل ظلمه أخوه) وتحذير مسلم من الشر (على قصد النصيح للمستشير لا على قصد الوقعة) وأن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه (كالأعرج) وأن يكون مجاهراً بالفسق (كالخنث والمجاهر بشرب الخمر ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر ولا يكره أن يذكر به ولكن لو ذكرته بغير ما يتظاهر به أئمت) .

ويجب على الغتاب أن يتوب ويندم على ما فعله ليخرج به من حق الله ثم يستحل الغتاب (وهو حزين في باطنه متأسف على فعله) ليحله فيخرج من مظلمته ، وسبيله أن يبالح في الشاء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه . وإلا كان اعتذاره حسنة محسوبة له .

(٨) النيمة : وهي إفشاء ستر الغير عما يكره كشفه سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول

من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن ، وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث . واسم التهمة إنما يطلق على الأكثر على من يتم قول الغير إلى القول فيه . فإن كان إلى من يخاف جانبه فهي سعاية (١) .

ومذموم كلام ذي المسافين الذي يتردد (تفاقماً) بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه (أي يجري مع كل ربح فهو على قول ابن مسعود إمعة) فينقل كلام كل منهما إلى الآخر . أو يحسن لكل منهما ما هو عليه من العادة لصاحبه ، أو يعد كلا منهما بأن ينصره ، أو يثني على كل منهما في معاداته وإذا خرج من عنده يذمه (ولكن قد يصادفهما صداقة ضعيفة ، فله أن يحامل كلا منهما صادقاً وينبغي أن يسكت أو يثني على الحق من المتعادين بين يدي عدوه) .

(٩) المدح : وهو منهي عنه في بعض المواضع ، فالمادح قد يفرض فينتهي به إلى الكذب ، وقد يكون به منافقاً لأنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله . وقد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه . وقد يفرح المدح وهو ظالم أو فاسق . وذلك غير جائز (إذ ينبغي أن يذم ليعتم) وقد يرضى عن نفسه فلا يعمل ، فإن سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس . بل ربما كان مندوباً إليه .

٩٩ - الغضب : وكذلك يسيء العاشرة مع الناس السكير والغضب والحقد والحسد . ويقول الغزالي في الغضب إن الله خلق طبيعة الغضب من النار وغرزها في الإنسان (٢) ، فمما صد عن غرض من أغراضه . اشتعلت

(١) وكان من عنت إليه التهمة وفيل له إن فلاناً قال فلان كذا أو فعل في حالك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في مسأله عدوك أو يفسح حالك أو ما يجري مجراه ، فعبه سنة أمور : أن لا يصدقه ، وأن ينهيه عن ذلك ويصح له ويصح عنه ذلك . وأن يعضه في الله تعالى ، وأن لا يظن بالقلب السيئ . وأن لا يحميه . حتى لا يلقى النجس ، وأن لا يرضى لنفسه ما ينهى الخلق عنه ، ولا يحكي خبره .

(٢) ولذا يفسر الغزالي الناس في الغضب إلى أربعة :

نار الغضب وثارت به ثوراناً يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعلى البدن كما ترتفع النار ، فلذلك ينسبط الدم وينصب إلى الوجه فيحمر إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوفه وكان معه بأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى حواف القلب وصار حزناً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانسساط فيحمر ويصفر ويضطرب . ويقسم الغزالي الناس في قوة الغضب على درجات ثلاث :

(١) التفریط بفقد هذه القوة أو ضعفها : (وذلك مذموم) . وثمره هذه الخيبة الضعيفة قلة الأتفة مما يؤلف منه من التعرض للحرم والروجة والاحتيال الآدي من الأخساء ، وصغر النفس والتهمة والظور في السكوت عند مشاهدة المنكرات والمعجز عن رياضة النفس عند الميل إلى الشهوات الخبيثة (إذ لا تتم الرياضة إلا بغضبه على نفسه عند ميلها إليها) .

(٢) الإفراط في الغضب : وهو أن يغلب حتى يخرج عن طاعة العقل والدين ولا يبقى للعز، معه بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، وسبب غلبته أمور غريزية (بأن يكون الإنسان بفطرته مستعداً لسرعة الغضب حرارة مزاج القلب) وأمور اعتيادية (بأن يخالط قوماً يسمون طاعة الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة فيتشبه بهم فيقوى به الغضب ، وهذا حيل لأنه مرض ونقصان عقل وضعف نفس ، وآية ذلك أن المرأة والصبي والشيخ الضعيف وذو الخلق السيء ، والردائل القبيحة أسرع غضباً) وبهما اشتدت نار الغضب أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة (إذ ينطفئ نور العقل وينمحى في الحال بدخان الغضب) .

١ — سريع الغضب والرحم (وكذلك المؤمن) .

٢ — على الرفود والحمود .

٣ — على الرفود سريع الحمود (وهو الأخد مأخوذ من قوله في نور الخيبة والغيرة) .

٤ — سريع الرفود على الحمود (وهذا هو سرهم إذ يخطئ على الدوام) .

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمّر الأهداق وتقلب المناخر وتستحيل الخلقة وتصبح الصورة . وأما أثره في اللسان فأنطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب . وذلك مع تحبط التنظيم واضطراب اللفظ . وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتخزيق والقتل والجرح عند المتكبر من غير مبالاة ، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب عجز عن التشتي ، رجع الغضب على صاحبه فلعن نفسه ومزق ثوبه وبعده وعدو الواله التحير وربما يسقط صريعا لا يطيق النهوض ، ويعتريه مثل الغشية فيضرب الجادات والحجوانات ويشتتها ويخاطبها (كالحياتين) . وربما تقوى نار الغضب فتغنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا . وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالخقد والحسد واضمار سوء السماتة بالمساآت والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك السر والاستهزاء .

(٣) غضب محمود ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث يجب الحمية وينطق حيث يحسن الحلم . وهو الوسط الحق بين الطرفين . (فمن عجز عنه فليطلب القرب منه ، فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله يذهب أن يأتي بالشر كله ، ولكن بعض الشر أهون من بعض) .

والعنف والحدة نتيجة الغضب والفظاظة (وقد ينتج عن شدة الحرص) يضاده الرفق واللين ثمرة حسن الخلق ، ويقول الغزالي إن محمود وسط بينهما ، إلا أن الرفق مفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تقع (نادرا) و « الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق فإن النجاح معه في الأكثر » .

١٥٥ — القدر الذي يجوز التشفي به من الكلام : ويقول الغزالي إن

كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله (وقد نهى النبي الكريم عن مقابلة التعير بمثله نهى تزيه والأفضل تركه والعفو عنه لأنه يجره إلى ما وراءه : ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه) والذي يرخس فيه أن تقول من أنت وعمل أنت إلا من بنى فلان . يا أحمق يا جاهل (إذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق) . يا سيء الخلق يا صفيق الوجه يا تلبا للأعراس (وكان ذلك فيه) . ولو كان فيك حياة لما تكلمت وما أحقرت في عيني بما فعلت وأخزأك الله وانتقم منك : فأما التهمة والغيبة والكذب وسب الوالدين : غرام بالاتفاق .

١٠١ — الكبرياء : ويقول الغزالي : إن أسباب الكبر الظاهر أربعة : العجب والحقد والحسد (وبها يكون التكبر عند الخلوة والاجتماع) والرياء (ولا يكون به التكبر إلا لوجود ثالث) والتكبر يظهر في شمائل الرجل كصغر في وجهه ونظره شراً واطرافه رأسه وجلوسه متربماً أو متكئاً ، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد وفي مشيته وتبخره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفي تعامله لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله : فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له ، وأن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه . وأن لا يزور غيره . وأن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه : وأن يتوفى من مجالسة الرضى . وأن لا يأخذ متاعه يحمله إلى بيته أو يتعاطى بيده شغلا فيه ، وأن يطلب التجميل إذا رآه الناس . ولا يبالي إذا انفرده بنفسه كيف كان (والمحبوب الوسط من اللباس للحديث القائل « إن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » : فقد يكون لبس الثوب الجيد الجميل ليس للكبر بل لميله إلى النظافة أو لحبه للجمال : إذ علامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته) .

١٠٢ — الحقد ونتائجه : ويقول الغزالي إن الغضب إذا لم يظلمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، ومعنى

الحقد أن يلزم قلبه استئقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى
والحقد يشمر بثمانية أمور : الحسد وأن تشمت بما أصابه من البلاء ، وأن
تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . وأن تعرض عنه
استصغاراً له (وهو دونه) ، وأن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة
وإفشاء سر وهتك ستر وغيره ، وأن تحماكيه سخريه منه ، وإذاؤه
بالضرب وما يؤلم بدنه ، وأن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد
مظلمة ، وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تستثقله في الباطن ولا ينتهي قلبك عن بغضه
حتى تمنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته
والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على النعمة له أو بترك الداء له
والثناء عليه والتحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك
في الدين ويحول بينك وبين ثواب جزيل ، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله ،
والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة
لنفس وإرغاماً للشيطان ، فذلك مقام الصديقين .

فلمحقق ثلاثه أحوال عند القدرة : العدل وهو أن يستوفي حقه
الذي يستحقه من غير زيادة وتقصان ، أو الفضل وهو أن يحسن إليه بالعفو
والصلة ، أو الجور وهو أن يظلمه بما لا يستحقه .

١٠٣ — الحسد ومراتبه : ويقول الغزالي إنه إذا أنعم الله على أخيك
بنعمة (كدار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة) فلك فيها
حالتان : إحداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها (وهذه الحالة تسمى
حسداً وهو حرام إلا نعمة أصابها فاجر ، وهو يستعين بها على الفساد
والإيذاء) ، والثانية أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ،
والكن تشتهي لنفسك مثلياً (وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة
وهي محمودة وتكون واجبة إن كانت النعمة دينية كالصلاة ، ومندوبة
إليها إن كانت النعمة من الفضائل كالصدقات ، ومباحة إن كانت نعمة يتنعم

بها على وجه مباح . وهي وإن كانت تنقص من الفضائل ولكن لا توجب العصيان .

١٥٦ — أسباب الحسد : ويقول الغزالي إن أسباب الحسد سبعة :

(١) العداوة والبغضاء : وهذا أشدها (إذ ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستفراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك السر وما يجري مجراه) فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد ، فإن عجز البغض عن أن يقتنى بنفسه أحب أن يقتنى منه الزمان (بالبلايا وزوال النعم) وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى . وربما يحطّر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه ، وغاية التقي أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه .

(٢) التعزّز : وهو أن يتقل عليه أن يترفع عليه غيره ، فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه ولا تفاخره عليه .

(٣) التكبر : وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والتابعة في أغراضه ، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويرفع عن متابعتها أو ربما يتشوف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه .

(٤) التعجب : كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا « ما أقم إلا بشر مثلنا » فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزأ أن يفضل عليهم من هو مثليهم في الخلقة وقالوا متعجبين « أبعث الله بشراً رسولاً ؟ » .

(٥) الخوف من فوت المقاصد : وذلك يختص بمزاحمتين على مقصود واحد .

(٦) حب الرياسة وطلب الجاه بنفسه والتفرد : (فالرجل الذي يغلب عليه حب الثناء ويستفزه الفرح بما يمدح به من أنه لا نظير له في فنه ، يحب

موت من يشاركه في الثمرة . أو زوال النعمة التي بها يشاركه فيها) .

(٧) حيث النفس وشحيا بالخير لعباد الله تعالى : (فيفرح صاحبها باضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم) وهذا حيث في الجلبة لا عن سبب عارض . فتعسر إزالته .

وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاهلة فتظهر العداوة بالمكاشفة . ويقول الغزالي إن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم هذه الأسباب . ويقوى بين قوم يجتمع جملة منها فيهم وتظاير . وعلى أكثر بين أقوام يجتمع روابط يجتمعون بسببها في مجالس المحادثات ويتواردون على الأغراض . إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين متباينتين فلا تكون بينهما محاسنة وكذلك في محلتين . فإذا تجاوزا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا (وتزاحما) على مقاصد متناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه بقية أسباب الحسد . ولذلك ترى الأسكاف مثلا يحسد الأسكاف ولا يحسد البراز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة . ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب . ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا (ولذلك لا يكون بين علماء الدين محاسنة لأن مقصدهم وغرضهم معرفة الله تعالى والتمسكه عنده — وأجلها لذة لقائه — وهذه كلها لا ضيق فيها ولا عناية ولا مزاحمة . فإذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه نحاسدوا . لأن المال أعبان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر . ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم النصرف عن تعظيم الآخر . بينا العلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره من غير أن ير تحل من قلبه . والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه) .

١٠٥ — آداب الألفة والصحبة : ويقتضى الكلام عن الألفة مع الناس الكلام عن معاملة عمومهم ونواذه لمعارفه منهم وحقوق محبة

وزوجه ، وفد تكلم الغزالي عنها في مناسبات مختلفة بجميعها وتحملها فيما يلي :
 (أ) حقوق الناس عموماً : ويقول الغزالي « إن حقوق المسلم هي : أن
 تسلم عليه إذا لقينته ، وتحببه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا
 مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له
 إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ما تحب
 لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك » .

(ب) واجبات الأكل في اجتماع أو مشاركة : ويقول الغزالي إنه يجب
 على الآكل في مجتمع أو مع شركائه ، أن لا يتندى ، بالطعام ومعه من
 يستحق التقديم بغير سن أو زيادة فضل (إلا أن يكون هو المقتدى به
 حينئذ ينبغي أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اجتمعوا للأكل) وأن
 لا يسكتوا على الطعام ، (ولكن يتكلمون بالمعروف) وأن يرفق برفيقه
 (فان قلل نشاطه ورغبه في الأكل وقال له كل ولا يزيد في قوله « كل »
 على ثلاث مرات) وأن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له كل : ولا ينبغي
 أن يدع شيئاً مما يشتهي لأجل نظر الغير له : فان ذلك تصنع ، بل يجري على
 العتاد (ويحسن أن يقتل من أكله إثارة لآخوانه أو يزيد فيه على نية
 المساعدة وتحريك نشاطهم في الأكل : وأن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب
 أكلهم بل يفيض بصره عنهم ويشغل نفسه ولا يمسك قبلهم) بل يمد اليد
 ويقبضها ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا ، فان كان قليل الأكل
 توقف في الابتداء وقلل الأكل ، حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم
 أخيراً ، فان امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفماً للخجلة عنهم) وأن لا يفعل
 ما يستقذره غيره (فلا يفيض مثلاً يده في الصحاف ولا يقدم إليها رأسه
 عند وضع اللقمة في فيه : ولا يمس بقية اللقمة التي قطعها بسنه في الرقة
 والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات .

(ج) آداب تقديم الطعام إلى الزائرين : ويقول الغزالي إنه ليس من
 السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل

فإن ذلك من المفاجأة (ولكن يجب عليه إذا اتفق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له ، فإذا قيل له كل ، نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدتهم فليساعد ، وإن كانوا يقولونه حياء منه فينبغي أن يتعلل . أما إذا كان جائعاً فقصده بعض إخوانه ليطعمه ولم يترصد به وقت أكله فلا بأس به) . ويرى الغزالي أن آداب التقديم : ترك التكاف أولاً وتقديم ما حضر (فإن لم يحضر شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه : وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم) ولذا أثر أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور احضاره (فإن خير أخوه بين طعامين فليخير أيسرها عليه) وأن يشهي الزور أخاه ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح : وأن لا يقول له هل أقدم لك طعاماً بل ينبغي أن يقدم : إن كان .

(د) آداب الضيافة : ويرى الغزالي أن مظاهر الآداب فيها ستة :

(١) الدعوة إذ ينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الاتقياء دون الفساق ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص : وينبغي أن لا يجعل أقاربه في ضيافته فإن إهمالهم إهمالهم وإحسانهم وإحسانهم : وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إهمالاً لقلوب الآخرين ، وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان (اتباعاً للسنة) : وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب : وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته .

(٢) وأما الإجابة فسنة مؤكدة ولها خمسة آداب : أن لا يميز الغني بالإجابة من الفقير : ولا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعده للسافة (أو لغير الداعي أو لكونه صائماً) بل يحضر إلا إن تحقق أنه متكاف فليتملل ، وأن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شهية أو كان يقام في الموضع منكراً كالتشغل بنوع من اللغو وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً

أو شريراً أو فاسقاً أو متكلفاً ، وأن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن بل ينوي بها إكرام أخيه المؤمن وإدخال السرور على قلبه وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يجعل على تكبير أو سوء خلق .

(٣) وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين ، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة ، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً فليتواضع ، ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجرة الذي للنساء ومسترهم ، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام ، ويختم بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس ، وإذا دخل ضيف للبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول التقبلة وبيت الماء وموضع الوضوء .

(٤) وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة : تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف ، وترتيب الأطعمة بتقديم الفاخرة أولاً إن كانت ، فاللحم والثريد فالخللولة بعده يتخللها الماء البارد) : وأن يقدم من الألوان ألقانياً حتى يستوفي منها من يريد ، ولا يكثر الأكل بعده ، وأن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها ، ففعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه ، ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم بل ينبغي أن يكون آخرهم أكلاً وأن يقدم من الطعام قدر الكفاية ، وينبغي أن يعزل أولاً نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامعة إلى رجوع شيء منه ، فلهذا لا يرجع فضيق صدورهم وتنطلق في الضيفان ألسنتهم ، وما بقي من الأطعمة فليس للضيفان أخذه .

(٥) فأما الانصراف فله ثلاثة آداب : أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة ، وتنام الأكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول

والخروج وعلى المائدة ؛ وأن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير ؛ وأن لا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه ويراعى قلبه في قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يهزم به ويحتاج إلى إخراجة .

(هـ) آداب العاشرة الزوجية : ويقول الغزالي إن على الزوج مراعاة الاعتدال والأدب في أمور ، نجملها فيما يلي :

(١) الوثنية (وهي مستحبة) وحسن الخلق معها واحتمال الأذى منها ترجحاً عليها لقصور عقلها والحلم عند طيشها وغضبها (لا كف الأذى عنها خشب) ، وأن يزيد على احتمال الأذى بالمداينة والزوج والملاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء ، وأن يراعى الاعتدال في الدعاية ، فلا يدع الطيبة والانتباه معهما رأى منكراً ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتنع . ويجب عليه أن يعتدل في الغيرة وهو أن لا يتعاضل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ولا يبالغ في إساءة الظن والتعننت ونجس البواطن فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء ؛ وأما الغيرة في محلها فلا بد منها وهي محمودة ، والطريق المنقى عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج إلى الأسواق ؛ ويجب أن يعتدل في النفقة فلا ينبغي أن يقتصر عليها في الاتفاق ولا ينبغي أن يسرف بل يقتصد ، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بما كوله طيب فلا يطعمهم منه فإن ذلك مما يوغر الصدور ، فإن كان مزمعاً على ذلك فليأكله خفية بحيث لا يعرف أهله ، وإذا أكل فيشعد العيال كأيهم على مائدته .

(٢) أن يتعلم الزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى ؛ وأن يعرف آداب الجماع ومنها أن لا يقارب الرجل زوجته فيصيدها قبل أن يحادثها ويؤاندها ويقبلها وإضاغها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى

حاجتها منه (ويكره العزل لأنه دفع لوجود الولد) ، وأن يعرف آداب
الولادة وأنها أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى (فانه لا يدري
الخيرة له في أيهما) ، وأن يؤذن في اذن الولد ، وأن يسميه اسماً حسناً .
وإذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهما في العطاء والبيت . وأما في الحب
والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار .

(٣) ومهما وقع بينهما خصام ، (من جانبيهما أو من الرجل) ولم يلتئم
أمرهما فلا بد من حكيم أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا أمرهما
ويصلحا بينهما « إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما » . وأما إذا كان الفشور
من المرأة خاصة . فله أن يؤديها ويحملها على الطاعة قهراً (كما له حملها على
الصلاة قهراً) . ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديتها وهو أن يقدم أولاً
الوعظ والتحذير والتخويف . فان لم ينجح ولاها فليهره في الضجع أو انفرد
عنها بالفراش وعجزها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال . فان لم
ينجح ذلك فيها ضربها مبرحاً بحيث تؤلمها ولا يكسر لها عظام ولا يدمى
لها جسماً ولا يضرب وجهها . والطلاق مباح ولكنه أفضى للباحات إلى
الله تعالى . وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل . ومهما طلقها
فقد آذاها . ولا يباح إيذاء الغير إلا بحماية من جانبها أو بضرورة من
جانبه امتثالاً لأمر الله تعالى « فان أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » أي
لا تطلبوا حيلة للفراق ، فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة ، وليراع
الزوج في الطلاق أربعة أمور : أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه (لأن
الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه حرام وإن كان واقعاً ، لما فيه من
تأويل العدة عليها . فان فعل ذلك فليراجعها) وأن يقتصر على طليقة واحدة
(لأن الطليقة الواحدة بعد العدة تفيد القعود ويستفيد بها الرجعة إن
ندم في العدة ، وتحديد النكاح إن أراد بعد العدة) وأن يتلطف في التعامل
بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطبيب قلبها بهدية عن سبيل الامتناع
والجبر لما جعها به من أذى الفراق (إذ قال تعالى « ومتعوهن ») وأن
لا يفتي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح .

ويقول الغزالي إن حقوق الزوج عليها : طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب في نفسها مما لا معصية فيه ، وأهم حقوق الزوج على زوجته الصيانة والستر وترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراما . ومن الواجبات عليها أن تلازم الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانسياط وأسباب اللذة في حضوره . ولا ينبغي أن تؤذيه بحال ، بل يجب عليها أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه ، ومن آدابها أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها^(١) .

حقوق الأخوة والصحية : والأخوة عقد ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت (هذه الرابطة الروحية بين شخصين) تأكد الحق ، ولذا يرى الغزالي للأخ حقوقا عدة نجملها فيما يلي :

(١) أن يساهم أخاه في السراء والضراء : فبواسطه بماله ويعينه بالنفس في الحاجات ويقوم بها قبل السؤال (أو على الأقل عند السؤال والقدرة مع إظهار الفرح) ويقدمها على الحاجات الخاصة ، وأدنى مراتب الأخوة أن يقوم بها من فضلة ماله ، وثانيها أن ينزله منزلة نفسه ويرضى بمشاركته في ماله حتى يسمح بمشاطرته فيه ، وأعلاها أن يؤثره على نفسه !

(٢) أن يقيد بحقوقه جميع جوارحه : فينظر إليه نظر مودة يعرفها منه وينظر إلى محاسنه ويتعاضد عن عيوبه ولا يصرف بصره عنه في وقت إقباله ، ولا يرفع صوته عليه ولا يخاطبه إلا بما يفقه ، وأن يسكت عن ذكر عيوبه ومساوي أهله وأحبابه وولده في غيبته (لأنها غيبة) وحضرته (لأنه لن يجد منزها عن كل عيب) ، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه ، ويجب أن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه

(١) بهذا ترى سمو الغزالي بالصلة الروحية وإخراجها عن أن تكون مجرد تسامح جسم لجسم لأرضاء شهوة مادية ، بل أن تكون حالة روحية فوامها الحب والعطف والعلو على تربية الأولاد وتهذيبهم . راجع كتاب الحياة الروحية لمحمد علي قرطبي ص ٤٧ — ٥٢ .

(فإن الذي مسبك من بلغك) وعن التجسس عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأل عنه (فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه) ولا يثبت أسرارته إلى غيره البتة ولا يفشي شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، ويجب أن يسمع كلامه متلفظاً بسماعه ومصداقاً به ، وأن لا يقبض عن معاونته في كل ما يتعاطى باليد ، وأن يتواضع له ^(١) وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ، فيجب عليه أن لا يسيء الظن به وأن يحبره (تبعاً للحديث الشريف) بحبه « لأن القلوب تتجاري » . ويتفقد في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عارض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه ، وأن يدعو له ويظهر بلسانه وأفعاله كراهة جملة أحواله التي يكرهها ، والسرور بالتي يسرها ، وأن يدعو به بأحب أممائه إليه ، ويثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الشناء عنده (وكذلك الشناء على أولاده وأهله وصنعتة وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به ، وذلك من غير كذب وإفراط ، مع مراعاة حديث « إن الله لينقض إذا مدح الفاسق » وآكد من ذلك أن يبلغه ثناء من أتى عليه مع إظهار الفرح ، وأن يشكره على صديقه في حقه بل على نيته وإن لم يتم ذلك ، وأن يذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض ، وأن يعلمه وينصحه وينبهه على عبوبه ويقبح القبيح في عينه ويحسن الحسن (ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد ، فإن علم أن النصيح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبيعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وذهب أبو ذر إلى الانقطاع ، وأما أبو الدرداء وجماعة من

(١) ويعلى الخصال وقول غيره ورايه معنى الألباع لا معنى للبعوض ولا تقدمه إلا قدر ما تقدمه ولا قرب منه إلا قدر ما يقربه ويوم له إذا أقبل ولا تقدم إلا بقوده ! ولكنه قصر هذا إلى حين الاتحاد وظل بساط التكلف !

الصحابة فذهبوا إلى خلاف ذلك ، لأن الله تعالى قال لنبيه في عشرينه « فإن
عصوك فقل إني برى ، مما تعملون » ولم يقل إني برى ، منكم . أما زلتـه
في حقه بما يوجب إيمانه فلا خلاف في أن الأولى الصفع والاحتمال ،
فإن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب في السر
خير والتعريض به خير من التصريح والمساكنة خير من المشافهة والاحتمال
خير من الكل ، ويجب أن يقبل صدره فيما اعتذر إليه (كاذباً أو صادقاً)
وأن يحمل قوله وفعله في حقه على وجه حسن . وقوام الأخوة الموافقة في
الكلام والفعل والوفاء والإخلاص ، ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته
إلى الموت وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه وأقاربه والمتعلقين به
(ومراعاتهم ونفقتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ نفسه)
ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه
(إذ الرفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم) ، وأن يخالفه فيما
يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، وأن يكون شديد الجرع من المفارقة
تقور الطبع عن أسبابها ، وأن لا يسمع بلاغات الناس عليه ، وأن لا يصادق
عدو صديقه .

(٣) التخفيف وترك التكلف والتكليف : وذلك بأن لا يكلف أخاه
ما يشق عليه بل يروح مره من مهماته وحاجاته ويرفيه عن أن يحمله شيئاً
من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله
والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بعجته إلا الله تعالى : (فلا يجهد في صدره
حاجة — الحسد والحقد — مما أوتي ، وإذا وجد فالإنقطاع أولى) ،
وتمام التخفيف بطنى بساط التكلف (بأن يكون له عنده مرحب وهو السعة
في القلب والمكان وله عنده أهل يأنس بهم بلا وحشة ، وسهولة في ذلك
كله ولا يشتد عليه شيء ، مما يريد ، ويشير لذلك قول الأعرابي لصاحبه
أهلاً وسهلاً ومرحباً) ، ومن تنعمه الانبساط وترك التكلف أن يشاور
إخوانه في كل ما يقصده ويقبل إشاراتهم : فقد قال تعالى : « وشاورهم في

الأمر» . وينبغي أن لا يخفى عنهم شيئاً من أسرارهم .

١٠٦ — فالصديق روح أخيه ، بعينه ينظر وبأذنه يسمع وعن فكره ينطق ومنه يستمل ، إن هجع بخياله يحلم وإن انتبه به لاذ ، إذا استغنى عنه لم يزد في الودة وإذا احتاج إليه لم ينقصه ، لا يكاف له ، بل تحدث رؤيته ثقة به وتهدى إليه غيبته طمأنينة إليه ، هو هو إلا أنه بالشخص غيره ، قد أحله حبة القلب من قلبه ، وجرى مجرى الدم في عروقه ، فأخلص له الثقة وصق له المودة . هكذا فهم الغزالي الصداقة ولذا رأى ما رأى للصديق من حقوق ، والكنى بحشت عن الوفاء بحق واحد منها فلم أجده إلا في القليل . ولذلك ناديت وأنادى بالحلب الصامت وهو أن تحب من تحب من الناس ولا تتصل به ، بل تعمل له ما يعمل المحبون ، وتنتفى عليه بما ينتفى المخلصون وتحمل له في قلبك أمانى الصديقين . . . حتى إذا انتبه لك ، لم نجعله ينتبه . . . وبذا يحرقك الشوق . وبذا تطيرك الآلام . وبذا تسكون وفاقاً لجميع الناس . صديقاً لهم كلهم ، وليس لك من بينهم أخ واحد (يجوز) أن تسميه صديقاً بالمعنى الذي أرادته الغزالي (صدوقاً) . . .

الباب الثالث

ما بينك وبين نفسك (فقه النفس)

« لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ، لنظروا إلى ملكوت السماء »
« حديث شريف »

١٠٧ — معنى حسن الخلق : الخلق كما يقول الغزالي عبارة عن « هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرماً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي للصدر خلقاً سيئاً » . فالغزالي يرى أن الخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وأنه كما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والحد ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، حسن الخلق (بالفتح) ، فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق (بالضم) فإذا استوت واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق (مطلقاً إذا اعتدلت جميعها ، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض يكون حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة) وهذه الأركان هي :

(١) قوة العلم : بأن تصير بحيث يسهل بهادرك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال الاختيارية (أي الحكمة إذ يحصل من اعتدالها حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن إفراطها عند استعمالها في الأغراض الفاسدة يصدر الخبيث والمسكر والخداع والدهاء والجريرة ، ومن تغريطها يصدر

البه والغارة أى قوة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل — والحق
بصحة المقصد وفساد سلوك الطريق — والجنون باختيار ما لا ينبغى
أن يختار .

(٢) قوة الغضب : بأن يصير انقباضها وانبساطها على حدة ما تقتضيه
الحكمة (أى الشجاعة) بأن تكون قوة الغضب منقادة للعقل فتقدم
لو كان عزمًا ونحيم لو كان حزمًا ، ويصدر منها الكرم والنجدة والشهامة
وكسر النفس والاحتمال والحلم والنبات وكظم الغيظ والوقار والتودد
وأمانها ، فإن مالت للزيادة فهي تهور ويصدر منه البذخ والاستشاطعة
والتكبر والعجب ، وإن مالت للضعف فهي حين يصدر منه الجزع والهيانة
والذلة والحساسة وصغر النفس والانتقباض عن تناول الحق والواجب .

(٣) قوة الشهوة : بتأديبها بتأديب العقل والشرع (أى العفة) ويصدر
منها السخاء والحياء والصبر والمساحة والقناعة والورع واللاطفة والمساعدة
والظرف وقلة الطمع ، وهي شره إن مالت للزيادة ، ووجود إن مالت للنقصان
ويحصل منه الجور والشر والوقاحة والخبث والتبذير — وهو أحمق
من البخل — والتفتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق — وهو
أهون من التكبر — والحسد والتمانة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء
وغير ذلك .

(٤) قوة العدل : وهو حالة وقوة بها تسوس الغضب والشهوة
وتحملا على مقتضى الحكمة وتضييقها فى الاسترسال والانتقباض على حسب
مقتضاها (وضدها الجور) .

١٠٨ — قبول الأخلاق للتغير : ويقول بعضهم إن الأخلاق (وهي
الصورة الباطنة) لا يتصور تغييرها ، كما أن الخلق الظاهرة لا يقدر على
تغييرها (فالقصور مثلا لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا) ، وأنه محال قطع
التفات القلب إلى الحفظ العاجلة ، ولكن الغزالي يستنكر هذا ويقول :
لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات

ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حسنوا أخلاقكم» ؛ ويعزز اسماكم بكاره
بامكان تغيير خلق البهيمة إذ يمكن نقل الفرس مثلا من الجماع إلى السلاسة والانتقاد
(فما بالك بالإنسان ؟) ؛ ولكي يوضح لنا رأيه يقسم الوجودات إلى
ما وقع الفراغ من وجوده وكاله (وهذا لا مدخل للأدنى في اختياره في
أصله وتفصيله كأعضاء البدن) وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة
لقبول الكمال بعد أن وجد له شرط قد يرتبط باختيار العبد (فالنواة
لا تصير نخلاً مثلاً إلا بالتربية ، ولا تصير تفاحاً أصلاً) فكذلك الغضب
والشهوة لا تقدر على قمعها أصلاً ، وليكن لو أردنا مسلاستها وقودها
بالياسة والمجاهدة ، قدرنا عليه ، ولا يعارضنا في هذا اختلاف الجبلات
(إذ بعضها بطل ، القبول وبعضها سريعة وسبب هذا قوة الغريزة في أصل
الجبلية وامتدادها مدة الوجود ، فان قوة الشهوة أصعب القوى وأعصاها
على التغيير لأنها أقدم وجوداً) ، ثم إن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل
بعقضاء والطاعة وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً ، والناس فيه على أربع مراتب ؛
(١) الإنسان المغفل الجاهل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل
والقبيح ، بل يبق كما فطر عليه خالياً من جميع الاعتقادات ولم تستقم شهوته
أيضاً باتباع اللذات ؛ فهذا سريع القبول للعلاج جيداً فلا يحتاج إلى معلم
ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله إلى المجاهدة ، فيحسن خلقه في
أقرب زمان .

(٢) جاهل ضال قد عرف القبيح ولكنه لم يعود العمل الصالح .
بل زين له سوء عمله فتعاطاه انتقاداً لشهوته وإعراضاً عن صواب رأيه
لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم تقصيره في عمله ، فأمره أصعب من الأول
إذ عليه فلع ما رسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتقاد للصالح ، وهو بالجبلية
محل قابل للروضة إن انتفض لها بحزم وحزم ، والأصل أنهم في المجاهدة
الوفاء بالعزم ، فإذا عزم على ترك شهوته فينبغي أن يصبر ويستمر ، وإذا
نقض عزمه فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه ، لأنه إن عود نفسه ترك
العزم ألفت ذلك ، ففسدت .

(٣) ضال فاسق يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل ، وتربي عليها ، فهذا تكاد تقتنع بمعالجته ولا يرجي صلاحه إلا على الندور .

٤ — جاهل وضال وفاسق وشرير نشأ على الرأي الفاسد وتربي على العمل به ، فيرى الفضيلة في كثرة الشر ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره (وهذا هو أصعب الراتب) .

ويرد الغزالي على قولهم إن آدمي ما دام حياً فلا ينقطع عنه الغضب والشهوة وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق ، ولذلك لا يمكن تغيير الأخلاق فيقول : « إن هذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالسكينة ومحوها وهيماتها ، فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجيلة ، فلما انقطعت شهوة الطعام هلك الإنسان . ولو انقطعت شهوة الوقاع لا تقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالسكينة لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه وهلك . ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال ، وليس المألوف إمالة ذلك بالسكينة ، بل المألوف ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط » .

١٠٩ — سبب حسن الخلق : ويرى الغزالي أن حسن الخلق يحصل على وجهين :

(١) جود إلهي ، وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق (كسائر الأنبياء) : ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكْتِسَاب (فصدق اللهجة قد يكون طبعياً ، وقد يحصل بالاعتقاد ومخالطة المتخلفين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلم) .

(٢) اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة بحمل النفس على الانحمال التي يقتضيها الخلق المألوف : ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة

وما لم تواظب عليها مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجنية ويتنعم بها
ويكره الأفعال القبيحة ويتالم بها ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات
مع كراهة واستئصال فيو النقصان ، ولا ينال كمال السعادة به ، والواظبة
عليها بالمجاهدة خير بالاضافة إلى تركها ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
« اعبد الله في الرضى ، فان لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير » .
ويقول الغزالي : إن ميل النفس إلى مقتضيات الشهوة غريب فى ذاته
وعارض على طبعه (لأن غذا القلب الحكمة والعرفة وحب الله عز وجل)
« فاذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى القباح ، فكيف
لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والنزمت المواظبة عليه ؟ » . ويستنتج
من هذا أن الأخلاق الجنية يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكاف الأفعال
النصادرة عنها ابتداء لتصبح طبعاً اقترأ ، ويقول : « إن هذا من عجيب العلاقة
بين القلب والجوارح (النفس والبدن) ، فان كل صفة تظهر فى القلب
ينفـض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة ، وكل فعل
يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور » ،
وضرب مثلاً بمن أراد أن يصير الخلق فى الكتابة له صفة تقسية حتى يصير
كاتباً بالطبع ، فبتكاف الكتابة بواظبته مدة طويلة على محاكاة الخط
الحسن بيده ، فترتفع منه أثر إلى القلب ثم ينخفض من القلب إلى الجارحة
فيكتسب الخط الحسن بالطبع .

١١٠ — ولما كان الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس ، كما أن
الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، فيقول الغزالي : « إن مثال النفس
فى علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق
الجيدة إليها مثال البدن فى علاجها بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبه
إليه ، وكما أن الغالب على أصل الزاج الاعتدال وإنما تعثرى العدة المضرة
بموارض الأغذية والأهوية والأحوال . فكذلك كل مولود يولد معتدلاً
صحيح الفطرة ، فبالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل ، كما أن البدن فى

الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالتشوق والتربية بالغذاء ،
فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب
الأخلاق والتغذية بالعلم ، وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تهذيب
القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك
النفس متلك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب
مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها ، وإن كانت عديمة السكال والصفاء
فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها ، وكما أن العلة للغيرة لا اعتدال البدن
الموجبة للعرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فالبرودة ، وإن
كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها
بضدها ، فيعالج مرض الجليل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر
بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن الشتهي تكلفاً ، وكما أنه لا بد من
الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهات لعلاج الأبدان المريضة ،
فكذلك لا بد من احتمال مرض المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، وكما
أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ،
وبخلاف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ، فكذلك
النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار ، وكما أن معيار الدواء
مأخوذ من معيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من
حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أي ضعيفة أم قوية ،
فإذا عرف ذلك انتفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وسنه ومناظر
أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذي يعطب نفوس الريدين ويعالج قلوب
المسترشدين ، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتسكاليف في فن مخصوص
وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن طبيب
الأجسام لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك طبيب
النفوس لو أشار على الريدين بشمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات
قلوبهم . أي أن الغزالي يرى أن الطريق السكلى سلوك مسلك المضادة

لشكل ما تهواه النفس » وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ،
فإن الجنة هي الأولى .

١١١ - أمثلة لرياضة النفس : ولقد ذكر في عدة مواضع أمثلة شتى
للعلاج بالمضادة ، فيقول مثلاً إن علة العجب الجبل المحض فعلاجه العرقة ،
والعرقة تريتنا أنه لا محل للعجب لأن كل ما يعجب به من فضل الله ، وإنما
هو (وهو من خلق الله واختراعه) محل لفيضان فضله تعالى وجوده ،
فالأولى أن يعجب عن إليه الأمر كله . ويقول إن رياضة الكبر بالتواضع
في غير مذلة ومن غير تقاسس (أي العدل باعطاء كل ذي حق حقه) .
والسبيل في اكتسابه أن يتواضع لقريته (بالتخلي عن المجلس وأن يغدو
إلى باب الدار خلفه) ولمن دونه كالسوق (بالقيام والبشر في الكلام
والرفق في السؤال واجابة دعوته والسعي في حاجته ، وأن لا يرى نفسه
خيراً منه فلا يحقره ولا يستصغره) .

ويقول إن علاج الغيبة هو العروفة بأن ينظر إلى السبب الباعث له عليها
إذ علاج العلة بقطع سببها ، فإذا كان سببها أن يشفي الغيظ يذكر مساويه
(أو الحقد إذا امتنع تشفي الغيظ) فعلاجه بأن يقول إنه إذا أمضى غضبه
عليه فعمل الله تعالى يرضى نفسه عليه (هو) بسبب الغيبة ، وإذا كان سببها
موافقة الرفقاء ، ومجاملتهم ومساعدتهم (بالتفكه يذكر الأعراض) فعلاجه
بأن يعلم أن الله تعالى يغضب عليه إذا طلب سخطه في رضا المخلوقين ، وإذا
كان سببها أنه استشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يفتح
حاله عند محترم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يفتح هو حاله ويظلم
فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدئ ، يذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده ،
فعلاجه بأن يعرف أن التعرض لقت الخالق أشد من التعرض لقت المخلوقين ،
وهو بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا يدري أنه يتخلص من سخط الناس
أم لا ، وإذا كان سببها أنه نسب إلى شيء ، فأراد أن يتبرأ منه فذكر الذي
فعله أو ذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليحمد بذلك عذر نفسه من

فعله (كقولہ إن أكلت الحرام ففلان يأكله) فعلاجه هو معرفة أن هذا العذر جليل ، لأنه يعتذر بالافتداء بمن خالف أمر الله ولا يجوز الافتداء به وينفعه أن يعلم أن ألم غيره بعينته كتألمه بعينه غيره له ، فإذا كان سببها إرادة التصنع والباهات برفع نفسه وتزكيتها بتنقيص غيره والقدح فيه ، فعلاجه بأن يعلم أنه بما ذكره أبطل فضله عند الله ، وهو من اعتقاد الناس فضله على خطر (إذ ربما نقص اعتقادهم فيه إذا عرفوه بطلب الناس) فيكون قد باع اليقين بالوهم (على أنه لو حصل له من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنه من الله شيئاً) فإذا كان سببها حسده لمن يقبى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد أن يسقط ماء وجهه عندهم حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه ، فعلاجه معرفة أنه جمع بين عذابين عذاب الحسد وعذاب الآخرة وربما يكون حسده وقدحه سبب انتشار فضل محسوده ، فإذا كان سببها اللعب والهزل واللطافة وتزجية الوقت بذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة أو السخرية والاستهزاء ، فعلاجه بمعرفة أن قصده منه اخزاء غيره عند الناس باخزاء نفسه عند الله تعالى وعند الملائكة والنبیین وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

وبها وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغي أن يتحقق أن محجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب — إن كان يتعلق بفعله واختياره — كعجزه ، وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق ، وإذا لم يحسد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه يرى ، من كل عيب جليل بنفسه وغرور ، إذ الجليل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من

الشیطان ، فمن اعتقد أنه على خير في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور .

فإذا كان سببها انبعاث داعية التعجب في إنكار المسكر والخطأ في الدين بقوله ما أعجب ما رأيت من فلان : فعلاجه (وهو في الخاصة) هو معرفة أنه أهلك نفسه ودينه بدين غيره أو بدينه . وهو مع ذلك لا يأمن أن يهتك الله ستره كما هتك بالعجب ستر أخيه . فإذا كان سببها الرحمة (وهو في الخاصة أيضاً) باغتمامه بسبب ما يبلى به بقوله « مسكين فلان » قد غنى أمره وما ابتلى به » ، فعلاجه في معرفة أنه ينقل إليه من حسناته ما هو أكثر من رحمته ، فإذا كان سببها الغضب لله تعالى (وهو في الخاصة) على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه ، فعلاجه معرفة أنه بالقيية محبط أجر غضبه لله (إذ القية محبطة لحسناته إذ تنقلها في القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه) وتعرض لمقتته ، إذ كان الواجب أن يظهر غضبه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء .

وتطبيقاً على قاعدة المضادة نرى أن حاصل رياضة الأسمان المبيحة للغضب عند الغزالي يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر من قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوقة هيئة على النفس ، فإذا انمحلت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً من الغضب الذي يتولد منها ، وقد ظن القائلون أنه يتصور نحو الغضب بالكيفية ، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج وكلا الرأيين عند الغزالي ضعيف ، ويعلل ذلك بأن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) ما هو ضرورة في حق الكافة كالأكل والشرب والسكن والملبس وصحة البدن ، فلا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها ، بل إن غضبه لضرورة قوته وحاجته التي لا بد له منها في

دينه : فأنما غضب الله . والرياضة في هذا القسم ليست لينعدم غيظ القلب
ولكن لكي يقدر على أن لا يطبع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على
حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل ، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكاف
الحلم والاحتفال مدة حتى يصير خلقا راسخا . فأما قمع أصل الغيظ من
القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن (إلا إذا كان القلب مشغولا
بضرورة أهم منه : فالشعبى مثلا لم يغضب على من سبه لاشتغال قلبه بعهات
دينه ، فقال له إن كنت صادقا ففقر الله في . وإن كنت كاذبا فقفر الله لك)
وكل ما يمكن كسر شهوته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن
وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثر في الوجه ، ولكن ذلك شديد جداً .

٢ - ما ليس ضروريا لأحد من الخلق (كالجأه والنال الكثير
والصيت وكل ماصار محبوباً بالعادة والجهل بمقاصد الأمور) ويمكن
التوصل بالرياضة إلى الإنشكاك عن الغضب على هذا القسم إذ يمكن إخراج
حبه من القلب ، وذلك بأن يعلم الإنسان أن الدنيا معبر يعبر عليها ويتروى
منها قدر الضرورة فيزهد فيها ويمحو حبها عن قلبه : (وأنه كلما كانت
الحاجات والشهوات أكثر : كان صاحبها أحمق رتبة وأتقص) والرياضة في
هذا تنتهي إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه (وهو أهون) وقد
تنتهى إلى قمع أصل الغضب (وهو أدرجاً) إذ يندفع الغضب بغلبة التوحيد
أو حبه لله (إذ يعلم أن الله يحب منه أن لا يفتاظ) ويندفع أيضاً بحسن
الظن بالله وهو يرى أن الكل من الله ، والله لا يقدر إلا ما فيه الخير
في مرضه وجوعه وجرحه وقتله ، فلا يغضب ، وهذا الوجه غير محال
ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد تغلب في أحوال مختلفة ولا تدوم ،
ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعياً لا يندفع عنه ،
وقد كان النبي الكريم يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ولكن كان الغضب
لا يخرج عن الحق (أى كان يغضب لله على الخلق) .

(٣) ما يكون ضرورياً ومحبوباً في حق بعض الناس دون البعض لأنه

وسيلة إلى الضرورى والمحجوب (كالكتاب مثلاً فى حق العالم فانه مضطّر إليه فيغضب على من يحرقه ويغرقه) : وما صار ضرورياً فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه ، فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن ، حتى لا يشتد الألم بالصبر عليه !

١١٢ - وقد ذكر الفزائى أيضاً أمثلة كثيرة فى عدة مواضع للعلاج بمعجون العلم والعمل ، فيرى مثلاً معالجة الغضب علمياً بستة أمور : أن يتفكر فى فضل كظم الغيظ والتمحلم (بتسكف الحلم) والعفو والحلم والاحتمال ويرغب فى ثوابه ، فيمنعه عن التشنج والانتقام وينطفى عنه غيظه وأن يخوف نفسه عقاب الله بأن يعضى عليه غضبه يوم القيامة أخرج ما يكون إلى العقوبة ، وأن يحذرهما حاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو فى الدنيا لمقابلته والسعى فى هدم أغراضه والثبات بمصائبه ، وأن يتفكر فى قبح صورته عنده (بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب) ، وأن يكظم غيظه لله (مهما كان سبب الانتقام) ليعظم عنده ، وأن يعلم أنه يوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه لأنه بغضه لجرىء الشئ على غير وفق مراده كأنه يقول مرادى أولى من مراد الله . وأما العمل فإن يقول بلسانه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن لم يزل بذلك فليجلس إن كان قائماً وليضطجع إن كان جالساً وليتقرب من الأرض التى منها خلق (لأن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة) فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل .

ويرى أيضاً أن علاج حب الجاه مركب من علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم أن كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم لا يبقى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية (لأنه يستهدف لتجسد وقصده بالأيذاء وخوفه على الدوام على جاهه واحترازه من أن تتغير منزلته فى القلوب المترددة بين الاقبال والاعراض ، فضلاً عن أنه إن سلم وصفاً فآخره الموت ويفوت الكثير فى الآخرة) ، وأما من حيث العمل فهبالاعزال ومباشرة

أفعال يلام عليها حتى يفارقه الطمع ويأنس برد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق ، وهذا هو مذهب اللامية إذ اقتحموا القواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس ، وهو غير جائز لمن يقتدى به ، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محذور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس .

ويعالج الغزالي أيضاً الرياء بالعلم (بقطع الرغبة في الجاه بأن يعلم ما فيه من الضرر بما يحبط عليه من ثواب الأعمال والنزلة عند الله وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم منه في الحلال من التوفيق وما يتعرض له في الآخرة من العقاب العظيم ، فيقبل على الله قلبه) وبالعمل (بأن يعود نفسه إخفاء المبادات حتى يقنع قلبه بعلم الله وإطلاعه على عباداته ولا تتنازعه النفس إلى طلب غير الله) فيشتغل بذكر الله ، فإذا خطر الشيطان له — بمعرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم — تنبه له واشتغل بدفعه بما اعتقده من أن ذم الناس لا يزيده شيئاً ما لم يكتبه عليه الله ، وأن الله تعالى هو السخر للقلوب بالمنع والإعطاء .

ويقول الغزالي إن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، فالأدوية العلمية أن يتفكر الإنسان أنه بالحسد يهلك نفسه ومنغص عيشه (إذ يتعذب بكل نعمة يراها على أعدائه ويتألم بكل بلية تنصرف عنهم) ، ومسخط ربه (إذ مسخط قضاءه وغش رجلا من المؤمنين وترك نصيحته ولم يحب الخير له ، بل أحب له البلايا ، وزوال النعم) ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسده ، بل يتعرض لسخط الله تعالى وشديد عذابه في الآخرة ونقل حسنته إليه ، وعساه يحاسد رجلا من أهل العلم ويحب أن يخطئ ، في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح ، ويحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم ، وأى اثم يزيد على ذلك ؟

وأما العمل النافع في الحسد فهو أن يحكمه ، فكل ما يتقاضاه الحسد

من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه تقيضه فإن بعته الحسد على القدرح
في المحسود ، كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه
ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعته على كلف الانعام عليه
ألزم نفسه الزيادة في الانعام عليه ، فهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه
المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظير حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من
ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول
فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخر ، وتهون مرارة هذا الدواء
بقوة الرغبة في ثواب الرضى بقضاء الله تعالى .

ويقول الغزالي إن إزالة التكبر فرض عين ، ويزول بالمعالجة بأمرين :
(١) استئصال أصله : وعلاجه بمجموع من عمل (بأن يعرف نفسه وربه
وأنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا به تعالى) وعمل (بأن تسكن المعرفة
بالعمل وتجرب في أفعال المتواضعين في مواقع هيجان التكبر من النفس .
وبيانه أن يمتحن النفس بامتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن) فإن
من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه !

(٢) دفع المعارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على
غيره : فمن يعتريه التكبر من جهة النسب ، فليداو قلبه بمعرفة أمرين :
أن هذا جبل من حيث أنه تعزز بكامل غيره ، وأن يعرف أن أباه القريب
نظرة قدره وجده البعيد تراب ذليل ! ودواء التكبر بالجمال أن ينظر إلى
باطنه (إذ الرجيع في أمعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبراق في
فيه والوسخ في أذنيه والدم في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت
أبطه ، يغسل الفائط بيده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويتردد كل يوم إلى
الخلا ، مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن
أن يسه أو يشمه ، هذا في حال توسطه ! وفي أول أمره خرج من الصلب
ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من
مجرى القدر . ونو ترك نفسه يوماً لم يتعديها بالتنظيف والغسل ، لذات

منه الأثنان ! هذا على أن فبح القبيح لم يكن إليه فينفيه ولا كان جمال
الجميل إليه حتى يحمده عليه ، وكيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصور
أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الأسباب) ! فإذا كان
التكبر بالقوة ، فيمنعه من ذلك أن يعلم ما سيطر عليه من العلل والأمراض
(ولو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه ، ونقتله بقعة تدخل في أنفه أو نملة
تدخل في أذنه ، ونعجزه شوكة ، وحتى يوم نحمل من قوته ما لا يتحير في
مده) ! والتكبر بالغنى وكثرة المال والاتباع والأنصار وبولاية السلاطين
والتمكن من جينهم ، يزول بمعرفة أن هذه الأشياء قد تزول ، والتكبر
بالعلم يدفع بمعرفة أمرين أن حجة الله على العالم آكد لأنه لم يفض حق
نعمة الله عليه في العلم (وقد مثله الله بالحمار يحمل أسفاراً) وبالكبر إن
نحمل عليه يلبث أو تتركه يلبث) وأن يعرف أنه إذا تكبر صار محمقاً
نغيثاً عند الله ، والتكبر بالورع والعبادة سبيل دوائه أن يزوم قلبه
التواضع لسائر العباد (فلا ينبغي أن يتكبر على العالم ولو كان فاجراً غير
عامل بعلمه لأن الحسنات — والعلم منها — يذهبن السيئات ، ولا على
المستور قلعه أقل منه ذنباً وأكثر عبادة وأشد منه حباً لله ، ولا على
المكشوف حاله ، لأن ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغفل
واعتماد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتحليل الخطأ في ذلك
شديد عند الله) .

ويقول الغزالي إنه يجب على التائب إذا جرى عليه ذنب إما عند قصد
وشهوة غالبية أو عن اللام بحكم الاتفاق أن يتوب ويندم ، فإن لم تساعده
النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني
وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ويمحوها (بأن تكون الحسنة في محل السيئة
فيما يتعلق بأسبابها) إما بالقلب بالتضرع إلى الله في سؤال الغفرة والعفو
واضمار الخيرات والعزم على الطاعات ، وإما باللسان بالاعتراف بالظلم
والاستغفار ليعفو الذنب أو يخففه (وخيره ما كان بالقلب لا باللسان فقط)

وإما بالجوارح بالصدقات وأنواع العبادات. ويرى الغزالي عند كلامه عن الصبر أنه هو والعلم علاج الاصرار. ويقول يلزم تقوية باعث الدين على باعث الشهوة (باعثه في الخيرات الدينية لمجاهدة. ونعوذ به مصارعة باعث الهوى، وأن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده مراعيًا في ذلك التلطف والتدرج، فيترك البعض ويسلي نفسه ببعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداءً يترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية، وهكذا يفعل شيئًا فشيئًا إلى أن يجمع تلك الصفات التي رُسخت فيه). ولتضعيف باعث شهوة الوقاع مثلاً يرى الغزالي قطع مادة قوتها بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه والاحتراز عن اللحم، ثم يقطع أسبابه الميعة في الحال بالعزل والاحتراز عن مظاهر وفروع البصر على الصور المشتبهة (إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة) والفرار منها بالسكينة. ثم بتسليته نفسه بالمباح من الجنس الذي يشتهي (وذلك بالسكاح).

١١٣ — واجب مريض النفس: ويقول الغزالي إن مريض الأخلاق يحتاج إلى التصديق بأمور: أولها الإيمان بأن المساعدة في الآخرة سبباً هو الطاعة والشقاوة سبباً هو المعصية (كما أن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبته مسبب الأسباب). وثانيها العلم بصدق الرسول والإيمان بما جاء به (كما أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه). وثالثها الإصغاء إلى آيات التحذير من اتباع الهوى وارتكاب الذنوب وأنها تتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه ويفقد المناجاة ويسود وجهه قلبه بالخوض في الذنوب (إذ لا بد أن يصنى المريض إلى الطبيب فيما يحذره عنه من الأسباب المضرّة على الجملة حتى تكون شدة الخوف باعثة على الاحتيا)، ورابعها العلم بذنبه المخصوص وبالذنوب جميعها وآفاتهما وكيفية التوصل إلى الصبر عنها وتكفير

ما سبق منها (إذ يجب على المريض أن يصفى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه ، وليبين له العلاج الخاص لهذه العلة الخاصة) . ولذا يرى الغزالي في موضع آخر أن الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه أربعة طرق : أن يحكم في نفسه أسئداً بصيراً يعيوب النفس ويقع إشارته في مجاهدته . أو أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصحه رقيباً على نفسه لينبهه على ما كرهه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ، أو أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه (فإن عين السخط تبدي المساويا) أو أن يتخاطب الناس فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه .

١٩٤ — ما تؤاخذ به وما نفي عنه : ويرى الغزالي أن أخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر (أي إدراكاته علوماً إما على سبيل التجدد بالفكر ، وإما على سبيل التذكر إذ تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها) ، فتحرك — لأنها مبدأ الأفعال — الإرادات والرشقات فالعزم فالنية فالأعضاء ، وتنقسم هذه الخواطر إلى إلهام محمود يدعو للخير سببه الملك ، وإلى وسواس مذموم يدعو إلى الشر سببه الشيطان ، فيجاذب القلب بين التوفيق والاغواء ، وهو بأصل الفطرة صالح لقبول آثار كل منهما صلاحاً متساوياً (وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الشهوات أو الإعراض عنها) . ولكن لأنه لا يخلو عن صفات البشرية المتشعبة عن الهوى ، لم يخل عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذا كانت حمايته عنها فرض عين على كل عبد مكلف .

ويقول إن للقلب أربع أحوال قبل العمل بالجراحة : الخاطر ظليل فالاعتقاد فالحلم . فالخاطر كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة أي حدثته نفسه بها ، فإذا هاجت الرغبة إلى النظر تبعاً لحركة الشهوة التي في الطبع كان الميل ، وهي أمور اضطرابية لا تدخل تحت الاختيار تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل . ولذا يرى الغزالي أنه لا يؤاخذ به ، فإذا حكم القلب واعتقد

أنه ينبغي أن ينظر إليها (ما لم يمنع حياء أو خوف أو تأمل من الالتفات)
فيؤاخذ عنده بالاختيارى منه ولا يؤاخذ بالاضطرارى ، فإذا هم بالفعل
بتصميم العزم على الالتفات وحزم النية فيه ، فيرى أنه مؤاخذ به ، إلا أنه
إن لم يفعل (إذ قد ينعدم بعد الجزم فيترك العمل) فإن كان قد تركه
خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة (لأنه رجع
جهده في الامتناع وهم به على همه بالفعل) ، وإن تعوق الفعل بعائق
أو تركه بعذر طارئ لا خوفاً من الله تعالى ، كتبت عليه سيئة (لأن همه
فعل من القلب اختيارى) ، وبذا وفق الغزالي بين ما يدل على المؤاخذة
كقوله تعالى « إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله ، فيغفر
لمن يشاء ، ويعذب من يشاء » وقوله « إن السمع والبصر والفؤاد ، كل
أولئك كان عنه مسئولاً » ، وما يدل على العفو كقول النبي الكريم
« عني عن أمي ما حدثت به نفوسها ، ما لم تسكن به أو تعمل به » .

١١٥ - الخوف أفضل أم الرجاء ؟ ويقول الغزالي إن فضل الخوف
والرجاء بحسب داء القلب الموجود . فإن كان الغالب على القلب داء الأمن
من مكر الله تعالى والاعتذار به وعصيان أمره ، فالخوف أفضل ، وإن
كان الأغلب هو القنوط من رحمة الله (فترك العبادة أو أسرف في اللواظية
عليها حتى أضر بنفسه وأهله) فالرجاء أفضل (وكذلك إن نظر إلى المظلم
لأن الرجاء مستقي من بحر الرحمة والخوف من بحر الغضب ، ولأن المعاصي
والاعتذار على الخلق أغلب ، يجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل ، وينبغي
أن يستعمل فيه لفظ الأصلح - لأنه يراد لغيره - ، فالتقى الذي ترك
ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ،
أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن (لأن الخوف يراد
للعمل وقد انقضى وقته ، لأن المشرف على الموت لا يقدر عليه ثم لا يطبق
أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نبات قلبه ويعين على تعجيل موته) ،
« وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه .

ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً لبقاء الله .
فإن من أحب لقاء الله . أحب الله لقاءه . وغاية السعادة أن يموت
محباً لله تعالى .

ويقول الغزالي « إن حال الرجا ، يغلب باستقراء الآيات والأخبار والآثار
وبالإعتبار بأن العناية الألهية إذا لم تقصر عن عباده حتى لم يرض لهم أن
تضوتهم الزايد والمزاي في الزينة والحاجة ، كيف يرضى بالسياقهم إلى الهلاك
المؤبد . بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أن أكثر الخلق قد هيء له
أسباب السعادة في الدنيا حتى أنه ينكر الانتقال من الدنيا بالموت وإن
أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً . فليست كراهتهم
لعدمه إلا لأن أسباب النعم أغلب لأعماله ، وإنما الذي يتمنى الموت نادر ثم
لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الخلق
الغالب عليه : الخير والسلامة ، فمنه الله لا يجدها تبديلاً . فالغالب أن أمر
الآخرة هكذا يكون . لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم
لطيف بعباده متعطف عليهم . ومن الإعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة
وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، وليذكر قوله تعالى « قل
يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر
الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم » .

الفهرس

رقم الباب	الموضوع	رقم البيت	الموضوع
١٢	التهليل		المقدمة (س ١)
١٤ و ١٣	الصلاة وحضور القلب فيها		تهديد البحث (س ٧ - ٢٢)
١٦ و ١٥	الركعة واجبات أخذها وعرضها		المواهب العظيمة لفضل العلم .
١٧	صدقة الصلوة		تقسيمه إلى علم معاملة وعلم
١٨	الصوم		مكاشفة وإلى شرعي وغير
١٩	الحج		شرعي ، والقدر المأمور منه ،
٢١ و ٢٠	تلوة القرآن وأعمالها فيها		واجبات كل من العلم والتعلم ،
٢٢	ذكر الله وعنايته واجبات القلب		وعبرنا مثلا للصلة بين العلم
	وكيف يكون		والتعلم في دور العلم الحضرة .
٢٣	اختلاف الأوراد باختلاف		تقسيم البحث (س ٢٢ - ٢٦)
	الأحوال		تقسيم القرآن للأحياء وتقسيمنا
٢٤	هل يجوز تلاوة أسماء الله		للبعث ، معاني القلب والنفس
	تغير العبادة ؟		والروح ، جود القلب وأمنائه
	أسباب الحب عموماً		مع جنوده الباطنة ، أسباب
٢٣ - ٢٥	ومعنى حب الله ولماذا معرفة		خلو القلب عن العلوم ...
	والشوق إليه والأساس ...		
٢٥ - ٢٤	الرضى بقضاء الله		الباب الأول
٢٨ - ٢٦	معنى محاسبة النفس ومراقبة الله		ما بينك وبين الله
٤١ - ٣٩	معنى السعة	٤ - ١	العلم بالله وطرق معرفته ...
٤٣ - ٤٢	الإخائس والصدق والرياء ...	٥	معنى كل من الشهادة
٤٤	مراقبة الله في الدنيا	٦	صفات الله
٤٦ - ٤٥	حقيقة الزهد وواجبات القلب	٧	أخرف بين الإسلام والإيمان
٤٧	حقيقة الصبر	٨	مرايا التوحيد
٤٩ و ٤٨	كيف يجب أن يكون شكر الله ؟	٩ - ١١	التوكل على الله ومعناه ودرجات
٥٠	مراقبة الله في المسكن		قوته

5 APR 1989

رقم البند	الموضوع	رقم البند	الموضوع
٨٥	مراقبة الله في الرجا، والخوف	٥١	مراقبة الله في الأكل والشرب
٨٧ و ٨٦	أقسام الخشوف ...	٥٢	تحفة الاجتماعية للأكل ...
٨٩ و ٨٨	نوعا الخوف وسوء الخافقة ...	٥٣	مراقبة الله في الشكاح ...
٩٢ — ٩٠	معنى الفكر ومجاريه في خلق الله	٥٤	مراقبة الله في التوبة ...
٩٥ — ٩٣	ذكر الموت وألته ومماته ...	٥٥	مراقبة الله في المعاملات المادية
			مع الناس ...
	الباب الثاني	٥٦	درجات الحلال والحرام ...
	ما بينك وبين الناس	٥٧	مراتب التبهات ومشاراتها ...
٩٧ و ٩٦	قوائد كل من الخافقة والغزلة	٥٩ و ٥٨	العدل في المعاملة ومنفعة التجار
	ومقاييس الحكم بينهما ...		على دينه ...
٩٨	آفات اللسان ...	٦٠	مراقبة الله في العصب ...
	(العصب : السب ، المزاج ،	٦١	مراقبة الله في الحسد ...
	السكوت ، الغيبة ، المدح	٦٢	مراقبة الله في الكبرياء ...
	الحق ...)	٦٣	مراقبة الله في الصحة ...
٩٩	العصب وأقسام الناس فيه ...	٦٤	رأفة في معاملة غير المسلمين
١٠٠	القدر الذي تنور القسبي به	٦٦ و ٦٥	مراقبة الله في السباح والوجد
	من الكلام ...	٦٧	مراقبة الله في الجاه ...
١٠١	الكبر وأقسامه وعلاجه ...	٦٩ و ٦٨	أسباب حب المدح وكراهة الله
١٠٢	الحقد وسائجه ...	٧٠	أحوال الناس عند ذمهم أو مدحهم
١٠٤ و ١٠٣	الحسد ومراتبه وأقسامه ...	٧٤ — ٧١	مراقبة الله في الإخلاص وعدمه
١٠٥	آداب الألفة والعصبية ...		الرياء ...
	حسب (أ) حقوق الناس محوما	٧٥	تصيلة ستر العاصي ...
	(ب) واحبات الأكل في	٧٦	على بقاء العسل خوف الرياء
	الاجتماع ...	٧٨ و ٧٧	مراقبة الله في التوبة ...
	(ج) آداب تقديم الطعام	٧٩	الصفائر والكياثر ...
	إلى الزايرين ...	٨٠	ما تكبر به الصفة ...
	(د) آداب الضيافة ...	٨١	نروط صفة التوبة ...
	(هـ) آداب المعاملة	٨٢	ما به سمح طاعة العصبية ...
	المزوجة ...	٨٣	طبقات الداعين ...
	(و) حقوق الإخوة	٨٤	سب الذنوب وعلاجها ...
	والصحة ...		

رقم البند	الموضوع	رقم البند	الموضوع
١١٠	تشبيه مرض الأحلاق بمرض البدن	١٠٦	رأيتا في حقوق الإخوة الى رآها الغزالي
١١١	أمانة لرياضة النفس	الباب الثالث ما بينك وبين نفسك	
١١٢	(علاج الغيبة والعجب الغضب حب الجاه والإصرار)		
١١٣	واجب مريض النفس	١٠٧	معنى حسن الخلق
١١٤	ما تؤاخذ به وما تغف عنه	١٠٨	قبول الأخلاق للتغير
١١٥	الخوف أفضل أم الرجاء ؟	١٠٩	حبب حسن الخلق

تصويبات

صواب	خطأ	س	س
العارفين	العارفين	٢٦	٢٤
تطهير	تطهير	١٥	٤٥
ناامة	ناقصه	١٢	٨٧
أكل	آكل	١٥	١٠١
كفوله	غوله	١٣	١٥١
الحية	الحية	٩	١٥٤
سريعة	سريعة	١٠	١٧١

Attest: [illegible] [illegible]

b 12829122

i 14365947

5 APR 1989

main



00000051664

B 753 G33 I35x 1947/c.1

[C- APR 1973

AMERICAN UNIVERSITY IN GEORGETOWN LIBRARY

5 APR 1989



